الدينونة

* الكتاب: الدينونة
* الكاتب: د. خالد العجماوي
* مراجعة لغوية: قسم التحرير بالدار المنتدي
* تصميم الغلاف: شيماء أبو طالب
* إخراج داخلي: قسم التنسيق بالدار المنتدي
* رقم الإيداع: 2022/27981
* الترقيم الدولي: 978-977-6968-87-5

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 6476 518 100 20+
فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

الدينونة

تأليف

د. خالد العجماوي

ذنب الحالم

لم يعد أحد يحلم في قريتنا. كأن الأحلام قد نضبت فلا تكاد تصل إلى أخيلة النائمين. كان ذلك منذ زمن ليس بيسير، ربما منذ جيل أوجيلين. حيث تبدلت الوجوه فصارت واجمة، كأنها منحوتة من حجر، أو كأن الشفتين قد نسيتا معنى البسمة وتعابير الفرح. أنا لا أذكر أني حلمت يوما. يقولون إنه بالأحلام أستطيع أن أرى أمي، والتي لم أرها طوال سني العشرين. أذكر أن جدي حكى لي مرة إنه وجد نفسه يطير فوق منزلنا. وقتها لمعت عيناه وابتسم للحظة، ثم رجع إلى ملامحه الصخرية وهو يأمرني ألا أخبر أحدا، فلو كان قد نما إلى كبيرنا «الحقاني» ما حكاه جدي فلم يكن ليسلم قط. ربما عنفه وزجره. بل وربما أمر فحكم على جدي بأنه من المجدفين. والحق أن كبيرنا كان يهتم لأمر القرية. قال إن الأحلام من الشيطان، وإنها من ذهاب العقل وزوال الحكمة، كما قال إنه الواقع وكفى ما نحتاجه كي ينمو العمل، فتستمر حيواتنا وتزيد غلالنا وما نجنيه من محاصيل. كان يرى أن الأحلام صنف من صنوف الكذب، وأنه لا مكان للكذب إن أردنا أن نعيش قوة ذات بأس وكرامة. ولأجل ذلك فقد عين لديه مساعدا كالوزير؛ يكشف له الرجل الكاذب من نظرة عينه، فإن حكم بكذب رجل أو امرأة، حكم عليه الكبير «الحقاني» بما يتراءى له من العقاب. لم يخطئ ذلك الرجل قط، كان يكشف الكذاب من عينيه، حتى عرفته قريتنا باسم أفردته له وحده «الكشّاف»

ولكن كيف نضبت الأحلام؟ هل هو الخوف من «الكشاف»؟ هل وضع الخوف يده على منابع الأحلام فجففها قبل أن تشق في النفوس مجراها؟

ولكن ورغم جبروت الخوف وسطوته، إلا أنه لم يقدر على شعور أهل القرية بالفضول، والرغبة في تداول الممنوع، في جوف الليل، حيث يفر بعض من خيالهم من محبس النهار، ومن عيون «الكشاف» وأحكام «الحقاني» الكبير.

سمعوا أن ثمة من يزعم أنه يحلم، وأنه يمارس الأحلام منذ سنين، وأنه يجالس بعضهم في جيوب الليل البهيم، فيحكي لهم ما قد حلم به بالأمس، على أن يعدهم بأن يجتمع معهم في غده، فيدر عليهم خيالاته وأحلامه. كانوا يخرجون من عنده وفي قلوبهم وجل من أثر الذهول والدهشة، كما كانت في عيونهم لمعة، وبعض ابتسام.

كان أمره سرا يكاد يكون شائعة لا حقيقة. خبر بدأ كنطفة تخلقت في أرحام الظلمة، ثم نمت رويدا رويدا حتى صارت حقيقة يتداولونها حين سدول الليل، وينكرونها مع أنوار النهار.

ذهبت إليه. عيناه لامعة، وجهه نحيل، ولحيته سارحة.

لا تسلني من أوصلني إليه، ولا كيف رحت. ولكن سلني عن الدهشة، عن الحيرة، عن الذهول والارتباك كلما حكى وسرد. كم من مرة انتبهت على فمي منفرجا كأبله، ولعابي يسيل وقد نسيت أن أبلع ريقي.

ثم ذهبت إليه أخرى، مرات ومرات. كان وحده الخوف متربعا في النفوس، ثم وجد كائنا جديدا يريد أن يأخذ مكانه. شيء يشبه الوله، ويسمونه الخيال والجموح. كانوا يطرقون برؤوسهم بين يديه، ويبكون، ويطلقون الزفرات،

ويذكرون له أحلامهم كأنها اعترافات. كانوا يقبلون يديه، ويعترفون أنه لولاه لما عرفت أحلامهم طريق النور، ولا أدركت أخيلتهم معنى الوجود.

اقتربت منه، وأطرقت برأسي، وبكيت:

- رأيت أمي بالأمس. احتضنتني بين ذراعيها وحملتني نحو السحب.

مسح على رأسي، وهو يرفع وجهي كي أواجه عينيه:

- وستراها غدا. وبعد غد. لم يعد بينكما حجاب.

- صرت أطير!

- مبارك لك الأحلام!

- هل أذنبت؟

- أذنبت في عرف «الكشاف» وعند قانون «الحقاني» ولكنك بالنسبة لأمك، فإنك أخيرا وصلت!

شعرت بغصة في نفسي. كأنها وكزة حادة نبتت في جنبات صدري.

تركته وذهبت، ثم سمعت جلبة من حيث تركته هناك. دخلوا عليه وقيدوه، ثم أخرجوه ليواجه السماء بجسد عار. تفسخ الليل، وحضر النهار ومعه سياط من لهيب الشمس، وحضر «الحقاني» وسط حاشية من الجموع. وخلفه كان «الكشاف» يتفرس فيه كذئب ينوي الانقضاض، أخذ يتفرس في وجهه النحيل، ولحيته السارحة. تواجهت العيون كما الفرسان في المعارك. عيناهما تحملان بريقا حادا، بريقا كنصول السيوف. أطرق «الكشاف» رأسه، ثم استدار نحو «الحقاني» وقد احمرت عيناه كالدم. لم نره بعدها.

اختفى ذلك الذي حرر فينا الجموح، وألهم خيالاتنا الحرية. وشعرت بغصة في نفسي ووكزة.

ظللت أمارس الأحلام. طرت فوق السحب، وسبحت فوق الموج، ورأيت أمي، بيد أنها كانت حزينة، كأنها تبكي، أو تعاتبني، ثم تلكزني في جنبات صدري. لم يا أمي؟ هل أذنبت؟ حين كنت أسألها كنت أصحو. لم يبلغ الحلم حد الجواب قط. كنا وبعضهم نجتمع في الخفاء، حين يجن الليل، فنتحاكى عن أحلامنا، فنمارس معا معاني الدهشة والجموح. الغريب أن جميعهم رأوه، إلا أنا! كلهم حكوا أنه ذهب إليهم وذهبوا إليه. وأنهم بكوا بين يديه. ولكنه لم يزرني ولا مرة. فقط كنت أسمع أنينه. ضعيفا خافتا يتهادى. توقفت لدي كل الأحلام، ولم أعد أرى جموحا أو خيالات طائرة. ما عدت أرى سوى فمي، يبدو كبيرا وأسود، وهو يهمس في أذن رجل ما، بعينين كبيرتين، وحادتين، تحملان بريقا كعين الكشاف !

قل لي أيها الحالم. هل أذنبت؟

.

مما تعدون

«أنا لن أقتلك يا عزيزي. لست أعتمد على القتل الرحيم. فكرتي تعتمد على اختصار ستين عاما من عمرك في ستين دقيقة. هذا كل ما في الأمر»

أشار إلى جهازه الذي يشبه الأنبوب. إذن هو لن يقتلني فيرحمني من هذه الحياة.

«إذا دخلت جهازي هذا، ستمر عليك الدقيقة عاما كاملا من عمرك. حتى إذا أكملت داخله ساعة، خرجت منه شيخا كبيرا. كم عمرك الآن؟»

«أربعة وعشرون»

«إذن من المفترض أن تخرج منه بعمر الرابعة والثمانين. ربما لن يتحمل جسدك ولا خلاياك، فتموت قبل انقضاء الساعة. أنا لا أقتل ولكن أسرع الزمن. فهمت؟»

أومأت برأسي، فرد ورقة أمامي وأعطاني قلما. طلب أن أقر أني متطوع، وأني موافق أن أختصر من عمري ستين عاما في ستين دقيقة. قد أموت في نصف التجربة. إن كان مقدرا لي أن أعيش حتى سن السبعين، فهذا يعني أني سأموت في الدقيقة ٤٦. المشكلة إن أكملت الدقائق الستين. هذا يعني أني سأخرج شيخا مسنا، ولست أضمن كيف سأكون وقتها. ربما أصاب بجلطة في المخ، أو وهن في القلب، أو داء المفاصل. كل هذا وارد. هل يحتاج القرار وقتا؟ ولم التفكير؟ ألم آت إلى هنا في الأصل كي أموت؟ كنت أظنه إعلانا عن القتل الرحيم، والذي انتشر كثيرا في الآونة الأخيرة، ولكن الخطة تغيرت قليلا. لا يهم. ومن قال إني سأعيش إلى الثمانين؟ سأموت غالبا في الدقائق الأربعين من

عد ذلك الأنبوب. رسمت على شفتي ابتسامة واثقة وأنا أضع توقيعي، وابتسم بدوره. وأشار إلى الأنبوب مرحبا بي في حرارة: «أهلا بك. تستطيع الدخول الآن» قمت وأنا أنظر إلى الأنبوب الذي يشبه البيضة المطولة. لم أفهم لم كانت ساقاي ترتعشان وأنا أدلف داخله، ساعدني رجلان، وقد ابتسما لي ابتسامة لم أفهمها. استلقيت فيه، وأغلق علي الأنبوب بصوت معدني ثقيل.

:1:00تسارع النبض داخلي. داخلني شعور بالأمل. أمل؟ كيف آمل وقد كنت يائسا؟

:2:00تسارع نبضي أكثر. شعرت بنشوة فرح عجيب. كأني أقفز هنا وهناك.

:3:00كأن قلبي توقف! تباطأت النبضات فجأة. كأني كسول، ومحبط. طاقة من الحزن لفتني.

:4:00في نصفها الأول حزن وكآبة. في نصفها الآخر شعرت بنشوة غامرة. كأنه الحب!

:5:00خفق قلبي بعنف. شعرت بلهفة واشتياق. شعرت بالحرمان. شعرت بالرغبة.

:6:00شعرت بفرح عجيب. طاقة من العطاء. من الأمل. كانت دقيقة كالنسمة.

:7:00انتابني بعض الغضب. في نصفها الأخير أصابني فوران. كادت دماغي تنفجر وقد تملكني غيظ، وحنق، وغيرة.

8:00: لازمني الحنق. انتابني شعور بالرغبة في الانتقام. شعرت بشهوة مفاجئة، يشوبها رغبة في السيطرة والتشفي. قذفت شهوتي كأنها بركان من غضب مكبوت.

9:00: بكاء. ندم. شعور عجيب بالضياع.

10:00: إرهاق. كأن نبضي لم يعد منتظما. خمول. رغبة في الموت.

11:00: بكاء محموم في نصفها الأول. في نصفها الآخر انتابني شعور مختلف. رغبة تملكتني كي أصلي!

12:00: انتظم قلبي. صار هادئا. كأنني في صلاة، وحولي ملائكة يسجدون حول العرش. كانت دقيقة من الجنة. مفعمة بالهدوء. مملوءة بالإيمان!

13:00: شعور بالمسئولية. رغبة في الإصلاح، شعور بامتلاك الحقيقة. وأنه لا بد من نشرها وتبليغها.

14:00: إحباط. أمل. صراع. خوف. رجاء.

15:00: آلام على وجهي كأنها صفعات. رذاذ كأنها بصقة على جبهتي، وإلام على معصمي كأنها قيود. كاد قلبي أن يقف من فرط الألم.

16:00: في نصفها الأخير زال شعوري بالقيد، ولكن تملكني اليأس، ورغبة جديدة في الموت.

17:00: رغبة عجيبة في التحرر. من كل فكر أو التزام. لم أعد مؤمنا.

18:00: -20:00 كانت مملوءة بالضحك! بلا سبب. شعرت أني أطير بعيدا مع سحابات الدخان. كأني أستمع إلى نكات ماجنة وسخيفة. شعرت برغبة حادة في السخرية من كل شيء!

:21:00ألم داخلي. شعور بالغثيان، والرعشة، والدوار. تشنجات عصبية حادة كأنها أعراض انسحاب.

:22:00شعور عميق بالخوف. كأنني أركض. مطاردة. كأني أسمع صوت أبواق وأرى قضبانا.

:23:00آلام حادة مجددا. بصق على وجهي. ضربات هنا وهناك. وقيود على معصمي، وشتائم.

:24:00رغبة هائلة في الموت. كأنني أدفع رأسي على حائط كي ينفجر منه الدم.

:25:00كأنه انتابني بصيص خفيف من الأمل. في النصف الأخير زاد الأمل ضعفين، وشعرت بشيء جميل.

:26:00ازداد الجمال جمالا. شاب شعوري بعض الشوق. لهفة. ولكن قلبي كان هادئا. مع شعور بالمسئولية الهادئة.

:27:00كأنني أبتسم. ثم كأنني نجم سعيد. مفعم بالأمل والعطاء. قذفت شهوتي كثيرا في نصفها الأخير، مع كثير من الحب.

:28:00شعور عجيب بالمسئولية. بالعطاء. بالأبوة.

:29:00شعور بالقلق. بالخوف. ثم شعور بالاطمئنان.

30- :35:00ما أجمل السعادة وقد أظلها الهدوء!

:36:00قلق عجيب. خوف من أن أفقد شيئا ما. شخصا ما!

:37:00زاد القلق. تعملق الخوف. رغبة شديدة في الدعاء والصلاة.

:38:00دموع هادرة. حزن عميق. كأن الحياة تحولت إلى سراب. شعور مؤلم بالفقد.

39:حزن. شعور بالمسئولية. شعور الأبوة تفاقم.

40- 45:00:شعور جميل بالفرح وإن كان هادئا، مع مسحة من حزن لم يمت.

45- 50:أصبحت المشاعر ثابتة فترات أطول. هدوء. ورغبة في الصلاة.

50- 55:00:دقائق سعيدة. مشاعر جديدة بالأبوة. ذكرتني بالدقيقة الثامنة والعشرين!

56:00:بعض الألم. شعرت بضيق في صدري.

57:00:شعور الضيق يتزايد. شعور بالتعب. بالوهن.

58:00:شعور مؤلم باحتباس البول. أريد أن أبول!

59:00:آلام في المفاصل. ضيق في الصدر. احتباس في البول. ولكن مع كل هذا هادئ، ولدي رغبة في الصلاة.

60:00: شعور عام بالامتنان والشكر. أنفاسي واهنة. وجسدي ثقيل.

صدر أزيز معدني. انتهت الدقائق الستون، وفتح الأنبوب. خرجت بساقين واهنتين، ونظرت لنفسي في مرآة الغرفة فلم أعرفني. كدت أقع لولا أن أسندني هذان الرجلان اللذان ساعداني كي أدلف منذ ساعة خارج الأنبوب. أو منذ ستين عاما داخله. جلست على كرسي قريب. قلت في رجاء:

«أريد قلما وأوراقا»

نظرا إلي في حيرة. قلت:

«سأكتب مذكراتي!»

لمسة طيف

قصة قصيرة.

ليس كل الحب من لحم ودم؛ كما أنه ليس شرطا أن يكون شبقا مدفوعا بشهوة. نعم أحب هاتين الفجوتين أسفل جبهتها، وهذه الأسنان المرصوفة على فكها الأسفل. لست مريضا بحب الموتى، ولكني أهيم بتلك التي سكنتها يوما روح جميلة، حضرت إليّ عبر هذه الكرة العظمية لتخبرني أني لست وحدي، وأنها معي، ترف حولي ملاكا حارسا، ونديما يأنس بحوارنا في كل ليلة.

وإن لحبي لها حكاية، تصاعدت في نفسي حتى استقرت في جنبات صدري. ذلك أن بعض الحب إيمان، فأردت أن أكتب قصة إيماني.

تعرفت عليها منذ شهور مضت، وكأي طالب مقبل على دراسة التشريح، ذهبت إلى عم (فرج) عامل المشرحة وخازنها الأمين. ولك أن تستشعر تلك الأحاسيس في أيام الدراسة الأولى؛ حين تدلف إلى تلك القاعة الكبيرة، وقد امتلأ هواؤها بالفورمالين، والصناديق مرصوفة حول أضلاعها، بينما تقبع طاولات خشبية قديمة في الوسط، عليها بقايا جسد لإنسان: ذراع، أو ساق، منزوعة اللحم مكشوفة الأعصاب، أو ربما كنت محظوظا لتجد جسدا كاملا لم يقربه مبضع المشرّح بعد، فتجد نفسك أمام جسد كجسدك، يتجهز كي يكشف عن خباياه التي هي نفسها خباياك. وقتها تشعر أنك صرت واحدا من الكهنة، يستقبل أسرار الحياة بين كفيه، وقد دلف لتوه إلى قدس الأقداس، فتهزك مشاعرك في عنف عظيم، وتجد روحك وقد انطلقت في فضاء من

التأملات. فلا يكاد يعكر صفو هذا المشهد المهيب سوى عم (فرج) نفسه، بملابسه الرثة، وقوامه القصير، وتلك النظرة الهادئة إلى حد البرود، وهو يفتح الصناديق بغير اكتراث، ثم يحمل ذراعا على كتفه بآلية، ليضعه على إحدى الطاولات الضخمة في منتصف القاعة، تجهيزا للدرس القادم، ثم يمضي.

كان عم (فرج) كاهننا الأكبر، وكان عند الطلبة أهم من رئيس القسم، والعلاقة معه تسمح بالدخول في أوقات مختلفة، في أول الصباح وآخره، وفي العطلات، كما أنها تضمن الاستفراد بإحدى الطاولات، كي تقلب الجسد المسجى كيف تشاء، ولك أن توطد أواصر المودة بأن تعبر عن صدق محبتك بأن تجزل له في العطاء، فتنفتح لك مغاليق تلك القاعة المهيبة.

وضعت كمشة في يده العريضة الخشنة، وتصنعت ابتسامة ود، وأنا أسأله أن أشتري عظاما. مط شفتيه، وسألني إن كنت أريدها هيكلا كاملا.. ناولته كل ما معي. هز رأسه نافيا:

- لا يكفي..

نظر إلي وقد بدأت أتعرق. قال بلهجة آمرة:

- انتظر هنا.

غاص في ممر مظلم، أو هكذا بدا لي، ومرت دقائق شعرت بها طويلة، ليأتي حاملا كيسا أسود، بداخله شيء مكور..

- خذ هذه.

وقبل أن أنصرف غمز بعينه وهو يناولني حمله:

- معك رأس بطل.

أي بطل يقصد؟

لما رجعت وضعتها على مكتبي الصغير في غرفتي. كرة عظمية، بتجويفين جميلين، وفم مصفوف الأسنان، بدا كأنه يبتسم في تهكم، أو ربما في سرور وبهجة. كأنها ترحب بي، أو كأنها تتودد إلي كي أرحب بها. رأسها أملس، إلا من خطوط تتشابك عليها كالخريطة، أمسكتها براحتي كأني أمسك بكرة السَحَرَة، أنتظر أن تشع نورا فينكشف لي ما قد خبأه القدر وتخفيه الأيام. راعني ذلك الثقب في جانب رأسها الأيمن. ما سره؟ ولماذا قال عم فرج إنها رأس بطل؟ وضعتها أمامي، وأمعنت في تجويف عينها، ثم أغمضت عيني.

****

- رحيلك السبب.

- وهل لنا أن نعدل في تصاريف القدر؟

- لم يكن لك أن ترحلي.

- ها أنا معك.

- نعم. لا تذهبي أبدا، كوني هنا على الدوام.

****

ما أن أغمضت عيني حتى وجدته، كان يركض وأركض، وحولنا الطلقات تصم الأذان، وقد أحاطني بذراعه كأنني جنين نبت من إبطه، وصلنا إلى تلة قريبة،

فجلسنا نحتمي تحتها من رصاصات الموت. رأيت حولنا التراب، ورائحة الدم، وأنّات الجرحى. التفتُ إليه فوجدته يلهث بجانبي، كأنه يشبهني! وقد التفت إلي مشجعا، بينما تهدر فوقنا الطائرات كالتنانين. أشار نحوها بسبابته، وهو يبتسم في وثوق، قائلا إنها معنا، وأننا لا بد عابرين نحو الشرق لا محالة. سألته بصوت مفزوع:

- هل ننتصر؟

- النصر حليف المخلصين. وقضيتنا أرضنا.

- قد نموت هنا!

لكزني وقد ضحك بصوت علا فوق الهدير:

- مرحبا بالموت إن كان سبيلا إلى النصر.

لم يستكن. قفز من مكانه وشدني تحت إبطه وشرع يعبر عبر الطلقات، حاملا سلاحه في يده الأخرى، يمطر به أولئك الذين يهاجموننا، وهم يتساقطون كالذباب. كان يصرخ في هستيريا، أو كأنه يغالب خوفه بصرخاته، فيشجع نفسه الخائفة كي تواصل طريقها إلى الضفة الأخرى. بيد أني شعرت بأزيز مرير يمر بجانب أذني، وصوت طقطقة عظام وانفجار، فالتفت نحوه، وقد تهاوى على الأرض بلا حراك، وخيط من الدم ينبثق من جانب رأسه. وفمه باسم بسمة واثقة في النصر.

أفقت من نومي على مكتبي مع صوت منبه الجوال. فتحت عيني على تجويف عيني الجمجمة أمامي، وتلك الابتسامة تعلو فكيها. عرفت فيها ابتسامة ذلك

البطل الذي حلمت به، ورأيت أني فهمت كلمة عم (فرج) حين قال إنها رأس بطل، وإن لم يذكر لي أن روحه لا تزال تسكن عظام الرأس، وأنه يزور كل من يتأمل رأسه وتجويف عينيه!

****

- خياله عريض!

- لا تتركه وحيدا.

- كأنه يكتب عن جده، وبطولاته في الحرب، وعن موته، وتلك الرصاصة التي وجدتموها في رأسه.

- يا لخياله!

- رحيلكِ السبب. وحكاياتك التي قصصتِها عليه..

- لطالما كان يحب القصص..

- لم يكن لك أن ترحلي..

- ليس لمثلنا أن يعدل ألواح القدر.

****

قررت أن أشكر عم (فرج).. سألت عليه بعد أسبوع فقالوا إنه في إجازة طويلة. كنت أشعر نحوه بالامتنان أن أهداني رأس بطل حقيقي، حارب وانتصر، وإن عرف الموت طريقه إليه، إلا أنه قد ترك لنا الكرامة ورجوع الأرض. لما وجدني زميلي أُلح في السؤال عن عم (فرج) سألني، فلم أحاول أن أداري عنه ما وجدت. لما سمع زميلي ما سردته عبس، وقطب حاجبه في شك، ثم ضحك مني

ساخرا. قال إني لا بد غرٌّ ساذج، إن كنت قد صدقت أن الرأس لبطل من أبطال الحرب. أجبته بأنه قد زارني في أحلامي، وأنها روحه هي التي تأتيني كل ليلة لتحكي. نظر إليّ زميلي متعجبا، والشك يقطر من عينيه، طلب مني أن آتيه بالرأس في اليوم التالي. لم تعجبني نظرته الشاكة والمتهكمة. أردت أن أفحمه، فأتيت في الصباح، وقد وضعتها في حقيبة جلدية أنيقة. أخذني زميلي في عجل إلى مدرس التشريح، وضعها أمامه وسأله، تفحصها المدرس في عجل، وقال إنها رأس حديثة، ربما لم يمر عليها ثلاث سنوات. نظر إليّ زميلي وقد لفني الذهول، وأصابني الدوار، وجرحني الخذلان. سأله زميلي عما يمكن أن يكون مصدرها. قال إنها في معظمها رؤوس لموتى بلا أقارب، ربما وجدوا في حوادث، أو سجن، أو ماتوا في مستشفى ولم يسأل عنهم أحد.

في المساء وضعتها أمامي. كنت غاضبا، لم أفهم هل منها أم من عم (فرج) أم من نفسي. ولكني شعرت بخذلان كبير. كلمات المدرس كانت واثقة، كما أن سخرية زميلي كانت لاذعة، وشديدة الإيلام. ظللت أتمعن في تجاويفها وصوت المدرس يرن في أذني كحكم بالموت على ذلك البطل في أحلامي، ثم علا صوته في أذني وهو يقول «حوادث أو مستشفى» .. حوادث!

أغمضت عيني وأنا أتذكر شيئا ما.

****

كأن النيران تأكل كل شيء، وقد سادت الدنيا صيحات الرجال، وولولة النساء، وبكاء الأطفال.

وجدته يحملني تحت إبطه، وقد نظر بوجهه الصارم إلى الناس المتجمهرة أسفل البناية، ليتأكد أن ثمة أيادي سوف تلقفني حين يرميني من فوق. نظرت إلى عينيه وقد ألهبتها حبات العرق التي تنز من جبهته. ابتسم لي ابتسامة الواثق بلطف الله، رغم قرقعة الأخشاب المدوية وألسنة اللهب التي تلتهم الجدران. نظرت إلى الأسفل فوجدت المسافة بعيدة. أسقطني من ذراعه، وشعرت كأن رحلة السقوط تمتد أياما وليال. كنت أسقط عبر الهواء وعيني شاخصة إلى أعلى، حيث يقف ذلك البطل مطلا من شباك البناية، وألسنة النيران تطل من ورائه، تلتهم كل ما تطاله دون رحمة. امتدت نظراتنا دهورا محفورة في الذاكرة، حتى وجدتني بين أيادي الرجال في الأسفل، وصوت التحميد والتكبير يخترق أذناي. عندها ابتسم لي من أعلى، ثم دخل وسط ألسنة النار. لم يظهر بعدها، اختفى. بعد إخماد الحريق وجدوا جثثا متفحمة، غير أن مواصفاتها جميعا لم تكن تنطبق عليه. قالوا إنه نجا، وقالوا إنه ذاب كأي ملاك قام بواجبه ثم تبخر. لم يعثروا عليه؛ ولكنه الآن يزورني!

****

- تأثر ابنك بقصة أخيك.

- كان بطلا وإن لم يعثروا عليه.

- كتب عنه متأثرا بحكايتك عنه.

- لا تدعه وحيدا فترات طويلة.

-غيابك السبب يا حبيبتي..

- هو حكم القدر، وليس لنا سوى أن نرضى به!

****

هذه المرة لم أذهب كي أسأل عن عم (فرج)..ذهبت مباشرة نحو زميلي الساخر المتهكم ذاك. قلت إني عرفت خطئي، وأنها بالتأكيد ليست رأس بطل للحرب، ولكنها رأس لشخص مجهول، بيد أني أعرفه، وأعرف بطولته. وأنه يزورني في أحلامي، حيث أراني طفلا يحملني وسط النيران، فينقذني وكثير من الأطفال، قبل أن يذهب داخل ألسنة اللهب مختفيا إلى الأبد. جن جنون زميلي، لم يضحك هذه المرة، وإنما زعق في وجهي، وقال إني مصاب بالجنون. لم أفهم سر غضبه مني، ولكنه خبط على رأسي، وطلب أن أستذكر دروسي في علوم التشريح، وأن الامتحان قد قرب ولا وقت للعبث وخيالي المريض. عنفته بدوري، وصرخت في وجهه كما فعل معي، ثم اتهمته بالسطحية والتفاهة، وأنه جاهل بعالم الروح وما يكون فيها من تجليات. ضحك وقتها ضحكة جلجلت في أصداء نفسي كأجراس الخيبة وهو يقول:

- الجمجمة ليست لرجل يا أبله. الرأس لامرأة وليست لذكر.

أجبته ملتاعا:

- أنت تكذب!

صرخ في وجهي قبل أن يلوح بيده ويبتعد حانقا:

- أنت لم تسمع كلام المدرس وقتها إذن، قال إن البروزات العظمية في الرأس كانت لأنثى. كما أن حجمها يدل على أنها كانت لامرأة في أواخر الثلاثين..

ابتعد زميلي بعد أن قال جملته، اختفى وسط الطلبة كذرة ملح تذوب بين ذرات الماء، أو كدخان سرى في الهواء ثم تلاشى..

يومها رجعت إلى غرفتي وقد تملكني الغضب؛ أمسكت بالجمجمة فشعرت بضحكتها ساخرة تشبه ضحكة زميلي الوقح. من أنتِ؟ قمت بزيارتي مرتدية حلة البطولة الحربية، ثم لما كشفت أمرك خلعتها في سهولة، ثم تقمصت دور الشهامة منقذة الأطفال وقاهرة النيران. ما سرك أيتها الكرة العظمية؟ تذكرت تلك الفجوة على يمين رأسها، كيف نسيتها وأنا أخالها ذلك الشهم الذي أنقذ الأطفال يوما. هل تحدث النار فجوة في الراس؟ هي ليست له إذن، ولكنه تسرعي وخيالي كما قال زميلي. ما سرك؟ قررت أن أذهب كي أبحث عن عم (فرج) مجددا.

****

- لم يعد ينام؛ صار نديما للسهر والكتابة..

- لا بد أن تستمر الحياة، تكلم معه..

- لم يعد يسمع أي نصيحة، هو يغوص في عالمه..

- أنقذه من نفسه قبل فوات الأوان..

- لست أقدر عليه وحدي، رحيلك السبب.

****

لم يعد عم (فرج)..كأنه قصد أن يغرقني في لغز أعيش فيه كل يوم، عبر حلم أراه وأنا أحدق في هاتين الفجوتين، لماذا قال رأس بطل رغم أنها رأس أنثى؟ هل كان يظنها لرجل؟ نفضت الفكرة رافضا؛ إذ كيف لكاهن المعبد ألا يعرف أسرار المومياء، حتى وإن لم يكن سليل الملوك..

في الليل حدقت طويلا فيها، لن أصدق الأحلام بعد اليوم وإن تلبست صورة الأبطال، رجلا كانت أو امرأة، لم أعد أؤمن أن روحا من عالم الأبطال تسكن فيها. وما حاجتي لعالم الأبطال؟ بطلة أنثى!

من تكونين؟ عشتار؟ أفروديت؟ حتشبسوت أو كليوباترا؟

لن أصدق أي روح منهن... كلهن ذهبن إلى عالم من الذكرى، ولا مكان عندي إلا للحم والدم..

مر عبير خاطف عبر أنفي. انتبهت حواسي كأنني كنت في غفلة قبل صحو. وشعرت بقشعريرة تسري عبر جسدي وقد مرت لمسة على وجنتي. كان العبير قديما ومحفورا في الذاكرة، وكذلك كانت اللمسة كأنها حضرت إليّ من الأزل. صدمتني الحواس، وقرعت في وجداني أن صدّق ما تحسه كأنك تراه. كان عبيرا أجمل من أفروديت، وكانت لمسة أعذب من جمال عشتار. وكان كلاهما قديما مغرقا في القدم. كأنهما منبع كل عبير في هذه الدنيا، ومكمن كل لمسة شعرت بها الموجودات في هذا الكون. سمعتني أبكي... ليس بكاء مكتوما ولكن بكاء افتقاد، وبرد وجوع. وشممت ذات العبير تارة أخرى، وشعرت دفئا يحوطني من جميع جهاتي، ثم شعرت بفمي يمتلئ عبر نبع نهر من لبن؛ فسرت

في كياني سكينة واطمئنان وشبع. وذاك العبير يدخل أنفاسي فيخالطها اختلاط أطياف النور، وتلك اللمسة على وجنتي ترسم على ذاكرتي لوحتها الأبدية. عرفتها. لا مناص من الإيمان بها... كانت هي... كانت أنتِ..

****

- صار يكتب عنكِ.

- لا تدعه وحيدا.

- في الكتابة علاج وعون.

- ولكن خياله جموح، وأخشى عليه أن ينفلت من كل واقع.

- يراك عشتار وأفروديت!

- هذا من أثر كتبي التي كنت أقرأها عليه..

- زرعت فيه الخيال ثم تلومينني عليه! شقية أنت!

- كنتُ عالمه..

- وعالمي!

- أنت أوزوريس قصتي..

- وأنتِ إيزيس... وابننا حورس.. بيد أنك تركتنا نعاني الغياب، وليس في طاقتي أن أعيدك إلى الحياة!

****

ليس مطلوبا على الدوام أن يعلن المؤمن عن إيمانه، قد ينبت في وجدانه سرا، فيرويه من فيض روحه حتى يتأصل في نفسه؛ فتنبت جذور في أعماق ذاته حتى لا يكون ثمة سبيل إلى التفريق بين نفسه وإيمانه. وهكذا كان إيماني. لم أخبر زميلي، ولم أعد أبحث عن عم (فرج) أو أهتم للغزه. كنت أرجع آخر النهار بعد دروسي الطبية الشاقة، فأقضي وقتي مع الاستذكار حتى منتصف الليل، ثم أنعم بهذه الخلوة بيننا؛ أنا وهاتين الفجوتين الغائرتين أسفل جبهة ملساء. تطلين عليّ منهما، فيأتيني الطيف ويمر بي العبير. كنت موجودة من البداية ولكنه إيماني القليل وقتها ما أعماني عن هذه الحقيقة. صوتك كان يمر عبر نفسي وأنت تحكين عن جدي، حين عبر إلى الضفة الأخرى من الأرض، حاملا سلاحه فوق منكبه. كنت أراه يحيطني بذراعه كأنني جنين منه، ولم أدرك أنه أنت، صوتك الذي كان يحكي، فجعلني جنين يحملني وقت المعركة. ولم أفهم أن قصة خالي المفقود حين أنقذ الأطفال من حريق في الحي القديم هي نفسها التي تراءت لي، وقد حملني على ذراعه تماما كما كنت تحملينني... كنت أنت في كل وقت!

تذكرين حين قصصت عليّ قصة إيزيس... سألتك كيف استطاعت أن تعيد حبيبها إلى الحياة، قلت إن الإيمان يفعل كل شيء، وقلت إنه بالإيمان تتحرك الجبال، وإن حبها كان إيمانها، ثم تراجعت في الأخير وقلت إنها من الأساطير القديمة، وإن الأساطير تحلق في خيالات وأوهام. أسألك الآن: هل يستطيع الإيمان أن يعيدك إلي؟ فإن كان لا فكيف يحرك الإيمان الجبال؟ أ و ليس

حبي لك إيمان إلى حد اليقين؟ ما الذي يمنع أن تعودي إذن؟ أعلم أنك قد عدت إلي في روحي ونفسي، وأنك تحاورينني من خلال سطوري، ولكني أريدك لحما ودما..أن يضمني عبيرك وجسدك لا مجرد طيفك. ما الذي يمنعنا من اللقاء؟

هاجت نفسي، وفاضت دموعي، وأنا أنظر إلى هاتين الفجوتين أسفل جبهة ملساء. راعني ذاك الثقب في رأسها. إنه هو ما أخذك مني. ذلك الشر الذي نبت في دماغك، فكبر رويدا رويدا حتى«استغول» على جسدك، فجعلك أمامي هزيلة، ضعيفة عن الحراك، بعينين غائرتين، وحروف تيبست عن النطق. لا بد أن أنزع ذلك الشيطان!

****

- دخلت عليه غرفته. كان هائجا..

- حذرتك من أن تتركه وحده!

- كان ينتفض من البكاء، وهو يحمل رأس العظم.

- يا ألطاف الله!

- وجدته يقول إنه سينزع الشيطان من الثقب في الرأس.

- ألطف بولدي يا رحمن!

- قلبت في الرأس بين يدي ولم يكن هناك أي ثقب!

- رأسي يؤلمني. صداع حاد. رؤيتي مشوشة..

- لا تذهبي!

- لا تتركه وحيدا..

****

عنفني أبي؛ أمسك بالرأس وصرخ... قال إنه لا يوجد أي ثقب، وأنه لا بد أن أستفيق. قال إنه كان يراقب ما أكتب. هل آمن به إذن أم أن حاله كزميلي وعم (فرج)؟ أعرف أنك تريدين أن أذهب إليه وأعتذر. صحوت في الصباح وفي نيتي أن أقابله في المساء بعد انتهاء دروسي، وأن أعتذر له عن تلك اللوثة التي أصابتني في غرفتي. ذهبت إلى قاعة المحاضرات متأبطا كتاب التشريح، ولمحت عم (فرج) أمام تلك القاعة المهيبة والفواحة بالفورمالين..أخيرا ظهر؛ سألته مباشرة عما يقصده من كلمة بطل. نظر إلي متعجبا وقد رفع كتفيه. قال إنه يقصدني أنا، لأني من اشترى منه الرأس فهي بذلك رأسي. قال مبررا: كنت أشجعك.

أي تشجيع هذا يا أبله! عشت أسابيع أنتظرك كي تفك اللغز وفي الأخير تقول إنك كنت تقصدني!

تركته دون أن أنبس بكلمة. وفي المساء استجمعت شجاعتي، وقررت أن أذهب إلى أبي معتذرا. كان دائما وحده، في غرفته، يغلق عليه بابه. لما اقتربت سمعت صوته... كأنه يتكلم.. ألصقت أذني بالباب. كأنه يحاور أحدا. صوته ممتزج بالنحيب، والشجن، والحرمان..

لم أقدر أن أمنع نفسي. نظرت من ثقب الباب فوجدته ممسكا بصورة وقد بللت وجنته دموع حارة، كان هائجا، وهو يسألها إن كان رأسها لا يزال يؤلمها..

أمي... رحيلك السبب.

طنين البندول

«أنا عائدة. لا ترتكب أي حماقة حتى أعود»

كانت تقولها كل مرة. وكنت أرتكب حماقة، ثم تعود فتؤنبني، ثم تصالحني، ونمرح معا حتى يغلبنا النعاس فننام حتى يأتينا الصباح.

*****

لن أسمح للزمن أن يمر. على عقارب الساعة أن تتوقف، وعلى الشمس أن تنام نومتها الأبدية وأن تنسى الإشراق. لأجلك يا أمي سأفعلها، وسأعلق القمر فوق السماء كطبق فضي لامع فوق حائط غرفتي فلا أدعه يبرح كبد السماء. قال الطبيب في المشفى إنه لا أمل، وأنه لم يبق لأمي سوى ساعات قليلة كي تتوقف أنفاسها وتتركنا. بدا أبي يائسا. احمرت عيناه وتهدج صوته وطأطأ رأسه. سأتركك لصمتك وحزنك وعجزك إذن، وسأذهب أنا في خطتي التي وضعتها لإنقاذ ماما. كانت لا تزال التاسعة. لايزال ثمة ثلاث ساعات على منتصف الليل، ولا أشك أن جيراننا لا زالوا مستيقظين.

- انزعوا بطاريات الساعات في بيوتكم. أوقفوا عقارب الزمن لديكم. فعلوها دون تردد. نظروا إليّ في إشفاق وحيرة، ولكنهم انصاعوا للخطة دون جدال. قمت بدوري في الخطة كذلك. وقفت على الكرسي الكبير كي تطال يدي ساعة البندول في منتصف الصالة الكبيرة عندنا، وأمسكت بالبندول

وخلعت رأسه. كدت أنسى والدي. لم يتبق على منتصف الليل سوى دقائق. سألته أن يعطل ساعة يده. استغرب طلبي ولكني سألته أن يفعلها كي ينقذ زوجته التي هي ماما. وجدت دموعه وقد انهمرت من عيون ذابلة. افعلها لأجلي يا أبي. أعدك أن تنجح خطتي. فقط افعلها.

توقفت الساعات. هكذا أخبرني صديقي، وجيراني وأبي. لم تعد ثمة دقات منتظمة ورتيبة. ظلت عيناي معلقة بالسماء السوداء، وذاك الطبق الفضي اللامع في وسطها ككشاف نور وسط الظلمة. حاولت ألا أغفل. ثم رأيت جيراننا يصدرون أصواتا مزعجة تشبه الزغاريد، وهم يتوافدون على منزلنا كأفواج من الحجيج. نظرت إلى السماء فوجدتها سوداء كما هي. عرفت أن خطتي نجحت. وفرحت لما وجدتهم يحملون أمي على أكتافهم كي يوصلوها غرفتها. أوحشتني ماما! ارتكبت حماقة ولكنها كانت سببا في رجوعك كي نعود فنمرح!

وجدت النسوة يدخلن عليها الواحدة تلو الأخرى وهن يطلقن تلك الأصوات العالية. أهكذا يبدين الفرحة؟!. دخلت واحدة وطلبت طستا فيه ماء وخرق، وطلبت ألا يدخل عليها أحد إلا بإذنها. أفهم أن يتم تزويق ماما كعروس بعد أن نجحت خطتي، ولكن لماذا لا يتم الاحتفاء بي؟

أنا البطل الذي أوقف الزمن ووقف على الكرسي وقتل البندول. لماذا لم تطلب ماما أن تراني؟ هل نستني في غمرة تلك الاحتفالات؟ لقد أوقفت الزمن من أجلك ماما. أين حضنك إذن؟ أين مكافأتي؟ نسيتِني وتركت تلك المرأة تزوقك دون حتى أن تشكريني. سأتركك الآن، ولكني لن أنسى أن أعاتبك لأنك تركتني في غمرة فرحتك. ظللت أرقب السماء وذاك الطبق الفضي في المنتصف. حاولت ألا أغفل. لمحت بصيص ضوء يأتي كشبح أحمر من بعيد. انتابني الفزع. كيف عرف طريقه وقد خلعت البندول من ساعة الصالة الكبيرة! وجدته يهجم من بعيد وقد زادت سطوته. اتسعت عيناي وأنا أرقب القمر وقد بدأ يخفت رويدا، ونور الشفق يغزو السماء فيحيل ظلامها إلى نور بغيض. أفقت عليهم يحملون أمي في ثوب أبيض يغطيها حتى وجهها، وينزلون بها إلى حيث لا أدري.

لا بد أن ثمة خطأ ما. ذهبت إلى صديقي. أقسم أنه عطل ساعته. رجعت إلى بيتنا ونظرت إلى البندول في الصالة. كان جثة. نظرت إلى القمر فوجدته قد اختفى. خائن! تركني وهرب أمام سطوة النهار. كيف عرف طريقه إلى السماء؟ كيف؟ علا صوت أنفاسي وسمعت دقات قلبي تدق قوية وغاضبة وقد تملكني البكاء. أنفاسي وقلبي! كانت الأنفاس تتردد في جنبات صدري طوال الوقت في انتظام ورتابة. وكان دق قلبي منتظما في داخلي. تماما

كالبندول! أوقفت الساعات ونسيت نفسي! تسلل الزمن من خلال شهيقي وزفيري. خلعت رأس البندول على ساعة الحائط الكبيرة، ولكني لم أخلعه داخل تجويف صدري.

سامحيني ماما. فشلت خطتي. لقد تسللت الساعات من خلالي. فمرت، وأخذتك مني إلى حيث تلك الغرفة السفلية هناك. ماما لقد ارتكبت حماقة مثل كل مرة، فلماذا لم تعودي ككل مرة؟ فتحت الباب وركضت مسرعا. لا أدري كيف عرفت طريقي ولكني وصلت حيث وجدتهم يضعونها في الأسفل. كان الغسق على وشك، وقد توارت الشمس بعد أن حققت انتصارها اليومي المعتاد، على وعد بانتصار في اليوم الذي يليه. ربضت على الأرض المتربة، ووضعت خدي على أديمها علّي أسمع همسك المحبب إلي. ارتكبت حماقة يا أمي فعودي. أغمضت عيني وقد انكمشت كنقطة صغيرة. هل أستعطف هذا التراب فينفتح عن بابه الكبير، كي أدخل وأعود بها إلى البيت؟

سقطت على خدي قطرة. ثم قطرتان، فثلاث. تساقطت حبات المطر بعد أن أسبل الليل خمائله، واشتد البرد وقد عصفت الريح.
خدي على التراب. أستمع إلى قطرات الماء تسقط بانتظام ورتابة. أكاد أسمع صوت خطوات لحيوان بقوائم أربعة يحوم حولي. خطواته على الأرض تسير بانتظام، ورتابة. وكأني لمحت حمامة في جوف الظلام تنقر الأرض كذلك.

بانتظام ورتابة. أسمع دقات قلبي، وأحس أنفاسي. كأن البندول يعاقبني، كسرت رأسه، فحضرت إلي أشباحه تحاصرني.

- أ لم أقل لك ألا ترتكب حماقة؟

- اشتقت إليكِ.

- سامحتك!

- هل تعودي؟

ضحكت.

- أنت عدت!

- هل سنمرح حتى الصباح؟

- لن نحتاج إلى صباح.

- ماما. لم أعد أسمع دق البندول!

- نعم يا صغيري. لقد نجحت خطتك.

المنحلَ

تحسست يداي الكتاب الذي أمامي كأنها تستلهم منه الأمان، بينما أرقب المارة منتظرا لها في المقهى. ضاقت عيناي وأنا أتساءل: ترى هل سأستطيع إقناعها؟

متحجرة هي، لكأنها تقدس العادات حتى تكاد تعبدها. سرحت بناظري على المارة وقد أكلني الانتظار، زممت شفتي من تحت كمامتي وقد وجدت العالم أكواما من أجساد تفتقد الوجوه.

حضرت أخيرا؛ بدت متزمتة مثل كل النسوة في هذا العالم. أشرت بفضول نحو وجهها الذي غطته الكمامة. قطبت حاجبيها، واتسعت عيناها، وقالت غاضبة:

- هل جننت؟

تقدمت بجسدي كله نحوها وأنا أردد:

- في الماضي كان كشف الجسد جريمة، وكان كشف الوجوه طبيعيا جدا

- هراء!

- منذ ألف عام أو يزيد، كان الناس يسيرون كاشفي الوجوه.

نظرت إلي مستغربة حديثي. أردفت:

- وكان النساء يغطين أجسادهن.

نظرت إلى جسدها المكشوف دونما اكتراث، وقالت:

- - نحن أبناء اليوم !

- ولماذا الاستمرار في شيء لا يقنعنا ولا نفهمه؟

- نعيش في إطار من زمن ومكان له قانونه.

- حتى وإن كان هراء؟

- الانفلات من القانون هو الهراء.

- الوجه نافذة للروح.

- روح؟! أتؤمن بهذه الأشياء!

- الروح سر الوجود وإن أنكرناها اليوم.

- أنت مريض ومنحل.

- لأني أؤمن بالروح؟

- بل لأنك لا تسير على قوانين الزمن.

قمت من مجلسي وخلعت كمامتي وهتفت:

- سحقا لهذا الزمن!

تجمعت الأجساد حولي كما الضباع حول الظباء تريد أن تفتك بي.

تركتني. لم تحاول حتى أن تمنع الأيادي الفاتكة عني.

قمت بصعوبة، وجررت ساقي إلى منزلي وأنا أحاول أن أتحسس طريقي. أمام المرآة وقفت أتحسس وجهي، أنفي، فمي، عيني المتورمتين. ترى هل أقابل يوما مجنونة مثلي؟

لمحت شبح وجه من خلفي في المرآة. لم أصدق !استدرت لأجد الشباك المقابل للمرآة مفتوحا ويطل على مئات الشبابيك المغلقة. رجعت كي أنظر في المرآة. مرت لحظات ولمحت ظل وجهها ثانية. كانت تبتسم، كأن بسمتها نافذة على روح مفقودة! كان جسدها مغطى.

الدينونة

تحذير هام

صاحب هذا التطبيق مجرم يستحق العقاب، وهو وإن كان عبقريا شديد الذكاء، فإنه قد ارتكب أكبر الخطايا وأحط الآثام؛ إذ أنشأ تطبيقا يجعل من فيه يسافر عبر المكان والزمن، على ألا يعرف في أي مكان يكون وإلى أي زمن سيذهب، فكان بذلك قد نصّب نفسه إلها صانعا للقضاء والقدر، وجعل من نفسه الملجأ والمصير، والبداية والنهاية.

وعليه، وحتى الوصول إلى مالك ذلك التطبيق وعقابه، فإننا نحذر من الدخول على مثل تلك التطبيقات أو المشاركة فيها، حتى ولو كان من جانب المغامرة والفضول، وإلا أصبحت مشاركا في الجريمة وتضع نفسك تحت المساءلة القانونية.

****

المحطة مزدحمة كثيرا، والوجوه وإن علاها الكثير من التوتر، إلا أن البسمة وجدت طريقها عبر شفاههم. تفرست في الوجوه باحثة عن وجهه فلم تر إلا وجوها بعيون ضيقة، ولون يميل إلى الصفرة. مرت على أسماء المحال فعرفت أنه اختار لها بلدا آسيويا. ماذا عساها تفعل في محطة القطار هذه، وكيف تعرف البلد والزمن؟ ولماذا لم يظهر «هو» حتى الآن؟ زفرت زفرة حادة وتمتمت:

- لماذا تأخر؟

وجدت أحدهم أخيرا يجلس هادئا، وفي يده تذكرة. عرفته من تلك العلامة التي وضعها التطبيق على جبهته. سألته:

- أين نحن؟

- اليابان.

تهللت أساريرها. وصفقت في فرح. سألها:

- هل حجزت تذكرة للمغادرة؟

قالت في عفوية:

- لا.

بدا متوترا فجأة، وقال في عصبية:

- نحن في هيروشيما يا آنسة. نحن في السادس من أغسطس والعام هو الخامس والأربعون. لم يبق إلا ساعة أو أقل!

كاد قلبها أن ينخلع. الشائعات صحيحة إذن والتحذيرات حقيقة. ماذا عساها أن تفعل؟ لماذا لم يذهب بها التطبيق إلى الأندلس، أو المصريين القدامى، أو حتى إلى سويسرا حيث الأبقار والأنهار. وهل كان يعلم «هو» بالأمر، فخدعها ولم يحضر؟ الحقير!

نظر إلى ساعته، وهرع نحو شباك التذاكر:

- سأشتري واحدة.

نظرت إلى الساعة فوجدتها السابعة والنصف. سألته:

- متى سيكون؟

- بعد خمس وأربعين دقيقة.

- متى يذهب القطار؟

- بعد خمس دقائق.

- اذهب أنت إذن.

- لن أتركك.

- شكرا لشهامتك يا سيد ولكن لا وقت لها. علي الانتظار.

من كان يتصور أن تكون نهاية المرء قبل أن يولد حتى؟!

اندس وسط الزحام، والناس تنظر إليه في غضب. ورجع إليها مسرعا وفي يده تذكرتها. أمسك بمعصمها، وجرها نحو القطار، قبل أن يطلق صفارته وينطلق.

- هل تظن أننا سننجو؟

- لست أدري. ولكنها محاولة.

- لم لا نحذر الناس؟ نخبرهم بالحقيقة!

- تريدين أن تبشريهم بالفناء! لن ينالك إلا التكذيب.

نظرت من شباك القطار. بدا أنه قد ابتعد مسافة الكيلو مترين.

خطر لها خاطر فسألته في انكسار:

- هل نصلّي؟

نظر من شباك القطار فلمح طائرة. أشار إليها وهو يهمس:

- حضر العقاب.

اختنقت الكلمات في حلقها، وهي تنظر نحو الطائرة في رعب. بدت كحمامة بيضاء أو فضية تشق عباب السماء، والناس في القطار ينظرون إلى فوق عبر شباك القطار وعلى وجوههم ابتسامة إعجاب.

- هل نستحق أن نموت أشلاء؟

سألته والدموع تترقرق في مقلتيها. قال في هدوء من استسلم:

- يبدو أن التطبيق يعرف عنا كل شيء.

- لا أراني أستحق هذا العقاب!

- كذلك الشيطان لا يرى نفسه مذنبا!

- ترانا نستحق هذه الميتة؟

تنهد وهو يرقب الطائرة وقد دارت دورة كاملة، أخرج من معطفه صورة امرأة تحمل طفلا يشبهه.

- كذبت عليها بالأمس. قلت إني لا أريد أن أراها مجددا. وأني أستطيع الحياة دونها.

- أنت قاس!

- أستحق العقاب إذن!

- ولكن أنا! أنا لم أفعل شيئا يستوجب أن أموت هنا.

نظر إليها طويلا، ثم سألها:

- ألم تكذبي ولو مرة؟

قالت وهي ترمق الطائرة في رعب:

- لا أذكر.

كانت يراها ترتعشان، ودبلة زواجها تصطك مع مسند الكرسي المعدني محدثة أزيزا مريرا.

نظر إلى عينيها بقوة هزت كيانها. أشار نحو الطائرة فإذا بشيء يهبط من أسفلها. قال في هدوء:

- نلفظ أفعالا ونحن لا نبالي تماما مثل هذه الطائرة. نفعلها ونحن لا نعلم مدى الدمار الذي سوف تلحقه.

تسمرت في رعب. سألته بصوت مبحوح:

- حان الوقت!

دوى صوت انفجار كاد أن يصم الأذن. صرخ:

- الله في كل مكان.

لم يعد ثمة شيء إلا بياض هائل، ثم لا شيء.

اختلاف

لم أفعل شيئا يستحق كل هذا الهراء!

كل ما هنالك أني وقفت في ساحة المؤتمر الكبيرة، والحضور يصفقون منتظرين أن يسمعوا كلمتي، فما كان مني إلا أن استدرت لأواجههم بعجيزتي، ثم خلعت بنطالي، لأظهر لهم ذيلي!

التفوا حولي بعدها في سرعة، وكبلوا معصميّ، واقتادوني إلى الحبس الاحتياطي. ووضعوني داخل زنزانة انفرادية، وعصبوا عيني بإحكام، ثم تركوني أصارع البراغيث حتى الصباح.

لست مجنونا، ولكني وللأسف صدقتهم.

أخذوني مكبلا إلى غرفة التحقيق.

مرت لحظات صمت. العصابة تكاد تعصر عيني فلا أدرك من حولي إلا بمقدار ما ألتقط بأذني. خطواته تدور حولي دورة كاملة. وقف خلفي. ويداه تتحسس ظهري من فوق القميص. هبط بأصابعه نحو عجيزتي حتى أدركت أصابعه المنبت. مشدودا بإحكام تحت المشد الذي أرتديه، مفرودا بطول فقرات ظهري حتى وصل إلى منتصف عامودي الفقري. سمعت طرقعة أصبعيه. بعدها انفتح الباب لأسمع جلبة لرجلين أو ثلاثة، وامتدت أياد تجردني من ملابسي، فما انتهوا إلا بعد أن وقفت عريانا، وقد نزعوا العصابة من فوق عيني، لأسمعهم بعدها يخرجون وهم يصفقون الباب في هدوء.

تملكني غضب، وأنا أحاول أن أفتح عيني المعصوبة منذ أمس. لاحظ هو أن ذيلي قد انتصب، ولم يكن يدرك أنه كذلك لا إراديا كلما تملكني الحنق والغيظ.

سألني في هدوء مستفز:

- لماذا قررت أن تظهره الآن؟

- وجدتها اللحظة المناسبة.

- في مؤتمر دولي؟!

- مؤتمر عن التعايش وقبول الاختلاف. هذا عنوانه.

- البلد كلها مقلوبة بسبب.

سكت لحظة، ونظر لذيلي في ازدراء، وقال:

- ذيلك.

- ظننتهم سيفهمون الاختلاف!

لوح بذراعيه في غضب مفاجئ:

- الإعلام المعادي يسخر منا ويقول إننا رجعنا إلى أصولنا الأولى، والمتدينون يصرخون ويرون أنه غضب من الله، والعلمانيون يرونه انتصارا لداروين المخبول.

اتسعت عيناي وأنا أتمتم:

- كل هذا الهراء!

دامت لحظات صمت بدت لي دهورا. ظل ينظر إلي وإلى ذيلي كأنه يتفرس في حيوان غريب. سألته فجأة:

- تقبلنا كل أنواع الاختلاف؛ في الأديان والأعراق وحتى المثلية.

أمران فقط هما اللذان لم نقبل فيهما الاختلاف.

أمسكت بذيلي وطوحته في الهواء:

- هذا العضو.

ثم نظرت إلى صورة معلقة باهتمام على الحائط، وأردفت:

- وهذا!

نظر إلي مذعورا، وهتف:

- أنت مخبول!

رن هاتفه. خطفه من مكتبه في سرعة. أومأ برأسه في طاعة وهو يتمتم:

- أمرك.

****

استيقظت لأجدنني على بطني في غرفة معتمة. ألم رهيب شعرت به فوق عجيزتي. كأن شبحا مر من أمامي وهو يتمتم:

- لا تتحرك. سأغير على الجرح الآن.

تأوهت والألم يعتصرني إثر ضغط فوق جرح غائر أسفل ظهري. وجدته يغمز إلي بعينه التي برزت من فوق كمامته. انتهى من عمله، وهم بالخروج، ثم استدار قائلا:

- أصبحنا نتقبل الاختلاف في كل أمورنا الآن.

نظر إلى صورة مبجلة على الحائط وأردف:

- إلا أمر واحد!

كالحجارة

كان علي أن أحمله على عاتقي كل صباح، أضعه على كتفي كأنه شوال من أرز، أو كأنه حمولة من الطوبِ الأحمر الخشن، ثم أسير به قرابة الكيلو مترين، حتى أصل إلى تلك الأرضِ الفضاء، والتي تبعد عن المشفى بما لايزيد عن نصف الكيلو، فأتركه هناك وأرحل وأنا غير خائف عليه. متولي ولدٌ مباركٌ كما تقولُ أمي. ورغمَ أنها لا تعلمُ أني أتركه في تلك الأرض الخربة وأمضي، إلا أني لم أكن قلقا. لن يأخذه أحد أو يخطفه طلبا لفدية، كما أنه لن تطمع فيه امرأة عاقر فتتخذه ولدا. فلتطمئن أمي إذن، وليهدأ ذلك الصوت الثائر الذي يقرع في ضميري حين أتركه كل صباح، والذي تخفت حدته تدريجيا وأنا أحمله على عاتقي حين رجوعي إلى منزلنا الصغير في آخر الحي.

لمْ يكنْ متولي جُزْءًا مِنْ مهامي الصباحية فِي المَاضي القِريب. لدى أُمي وَلَدَان ؛ أَنَا الْكَبِير ، وَاَلَّذِي ظلّ وَحِيدًا مُدّة امتدت ثَمَانِي سَنَوَات، ثُمَّ حَضَرَ ابْنهَا مُتَوَلِّي مُتَأَخِّرًا جِدًّا، كَأَنَّهُ قَدْ نَامَ فِي بَطْنِ الْقَدر سنين،

حتَى لَاحَت لَها الفُرْصَة قبل وَفَاةِ وَالِدِي بِشَهْرَيْن، فَقَرَّر البزوغ إلَى الدُّنْيَا بولولة خَافَتْة وشت بِطِفْل مَرِيضٍ غَيْرِ مُكْتَمَل النُّمُوّ . سَمِعْتُ

أَنَّ السَّبَبَ هُوَ نَقْص الأُكْسِجِين أَثْنَاء الْوِلَادَة، كَمَا سَمِعْت أَنَّهَا عَيْنُ جارتنا سَيِّدِة. أَيًّا كَانَ السَّبَب، فَقَدْ صَارَ لديّ أَخ وَحِيد، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَظَل حَيا ككومة فَوْقَ كُرْسي متحرك ، كما كُتِبَ علينا أَنْ نَكُونَ نَحْن - أنا وأمي- يديهِ ورجليه ، بَل وحفاضته في بعْضِ الْأَحايين.

كَأَنَّ الْقدر لم يَكفه ما في حياتنا من قتامة، فأراد أَنْ يزيدَ مِنْ سَوَادِ الْحُزْن وَكَآبَة الْخيْبة فوق ما نعيش ونعاني. قُلْت إن متولي لَمْ يَكُنْ جُزْءًا مِنْ مهامي الصَّبَاحِيَّة ، بَيْدَ أَنَّهُ صَارَ جُزْأَهَا الْأَهَمُّ بَعْدَ أَنْ قَرَّرْتُ أمي أنْ تَعْمَلَ فِي بَيْتِ إِحْدَاهُنَّ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَع السكني الرَّاقِي ، وَالَّذِي يَبْعُد عَنا كَثِيرًا جِدًّا عَلَى مَا يَبْدُو . كَانَتْ قَبلَ عملها هُنَاك تَحْمِل متولي عَلَى عَاتِقِهَا الْعَجُوز، وَقَد اِنْبَسَط جِسْمه لِيُصْبِح كَلَوْح مِنْ خَشَبٍ، فِي طَرَفِهِ السُّفْلِيّ اثْنَانِ مِنْ السِّيقَان، رفيعان، وَقَد تَصَلَّبا مُنْعَقِدَيْن فَوْق بَعْضِهِمَا ، بَيْنَمَا فِي طَرَفِهِ الْعُلْوِيّ وَجْه متولي .وَجْه طِفْلٍ فِي الثَّامِنة. . عَيْنَاه تلمعان، بَيْنَمَا فَمُه مَفْتُوحٌ بابتسامة بَله، وَقَد انسَل رِيقُه مِنْ جَانِبِهِ، وَهُو يُضَم ذِرَاعَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ الْهَزِيل. تَسِيرُ بِهِ أمي فِي الطُّرُقَات الَّتِي تَنْحَدر نَحْو سُوق الْحَي، فتشتري لَنا اللَّبَن، وَالْجبن، وَأَرغفَة الْخبز، تَحْمِلُهُم بِيَدِهَا الْيُمْنَى، وَقَد اِنْشَغَلَت الْيُسْرَى بِتَطْوِيق لوحها الْآدَمِي الْمَحْبُوب. أَسْمَتْه أمي بِمتولي لِأَنَّهَا رَأَتْ

أَنَّ اللَّهَ يَتَوَلَّاه، وَأَنَّه لاشك وَلَد مُبَارَك. لطالما تساءلت كَيْف تَفَكَّر هَذِهِ الْمَرْأَةِ ؟ كَيْف لَهَا أَنْ تُحِبَّ كَائِنًا يُرْهِقُها كُل هذَا الْحَد لِمُجَرَّد أَنها وَلَدَتْهُ!.

لماذا لا أكفيها وحدي؟ لماذا متولي؟؟

الكَارِثَة أَنَّهَا صَارَتْ تُرِيدُ أَنْ تَتْرُكَهُ كَي أَحْمِله عَلَى عَاتِقِي أَنَا ، بَيْنَمَا تَذْهَب هِي لتعمل فِي ذَلِكَ الْمَجْمَع الراقِي البعيد. هَل مطْلُوبٌ مَنِي أنْ أَحْمِلَ ذَلِك اللَّوْح الْآدَمِيّ يَا أُمي؟ أَلَّا تَعْرِفِين أنِي قَدْ نَجَحْت بتفوق كَبِير، وَأنَّ عَلِيَّ أَنْ أَتَقَدَّمَ بأوراقي لِكُلِّيَّة الطِّبّ أَخِيرًا، كَي أحقق أَحلامِي الَّتِي طَالَمَا شَغَلَتْنِي. أَلَا تَرَيْنَ أنَّك تقسين عَلَى ابْنَك الْكَبِير الْمُتَفَوّق الَّذِي هُوَ أَنَا ، لِأَجْل ابْنَك الخشبي الْأَبْلَهِ الَّذِي تزعمين أَنَّهُ مُبَارَكٌ؟ ظَللت أُفَكِّر مَاذَا أَفْعَلَ فِي الصَّبَاحِ. وجدت الْحلّ فِي الْأَخِيرِ بَيْنَمَا أَسِير وَأَنَا أُحْمَلُ اللَّوْح فَوْق عَاتِقِي، مُتَّجِهًا صَوْب كُلِّيَّةِ الطِّبّ. ثَمَّة أَرْض خَرِبَة قَرِيبَةمِنْ المشفى الْخَاصّ بِالْكُلِّيَّة. قَرَّرْت أَنَّ أَتْرُكَ اللَّوْح هُنَاك. أتْركه مَع ابتسامته الْبَلْهَاء، وريقه الَّذِي ينسدل مِنْ فِيهِ، وَأَذْهَب أَنَا صوب حلمِي ، حتى أَرْجِعَ إِلَيْهِ آخَر النَّهَارِ بَعْدَ أَنْ أنتهي مِنْ الدَّرْسِ، فأحمله وأمضي. فَكَّرْت أَنَّهُ ربما أَجِد تَفْسِيرًا لِحُبّ أُمي لِمتولي ، رُبَّمَا هِي هرمونات الْأُمُومَة. هَلْ مِنْ سَبِيلٍ لانتزاعها إذْن ؟ فَكَّرْت كَذَلِكَ فِي

عِلَاج. مَنْ يَدْرِي ! الْمهم أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ اللَّوْح عَثْرَة فِي طَرِيقِ نجاحي. ملابسي رَثَّة، وحذائي قَدِيمٌ ، وَوَزْن متولي فَوْق عَاتِقِي حملٌ عَلَى الْحَذَّاء، وَعَلَى قَمِيصِي الْمِسْكِين. وضعت متولي عَلَى الرَّصِيفِ عِنْدِ الْأَرْضِ الْخَرِبَة ، نَظَر إليّ بِعَيْنَيْه اللامعتين وابتسامته الْعَجِيبَة. تَركَته وَمَضَيْت . كَان درسي الْأَوَّلِ عَنْ الدَّوْرَة الدَّمَوِيَّة فِي أَجْسَادِنَا. يَتَكَوَّن الْقَلْبِ مِنْ أَرْبَعَةِ غَرَف، وينبثق مِنْه شريانان كَبِيرَان، وَهُوَ الْمَسْئُولُ عَنْ دَوْرُة الدَّمِ فِي جِسْمِ الإِنْسان. شَعَرْت وَكَأن الدَّرْس يطربني .شَعَرْت بلَذة وَأَنَا أُمْسِكُ الْقَلْب فِي يَدِي، تفحصت الأورطي، وَشَاهَدْت نِيَاط الْقَلْبِ بِعَيْنِي، بَيْدَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ تَفْسِيرًا لِحُبّ أمي لِمُتَوَلِّي بَعْد! انْتَهَى درسي الْأَوَّل ، ذَهَبَت بِقَلْب واجِف صَوْب الْأَرْض الْخَرِبَة. وَجَدْته هُنَاك. لاتزال ابتسامته قابعة عَلَى وَجْهِهِ . عَجِيبٌ أَنْت أَيُّهَا اللَّوْح! عَلَام تبتسم ؟! .راعني ما وجدته في كفه اليمنى؛ كمشة تحوي خمسين جنيها! حَمَلْتُه وَقَد دسستها فِي جَيْبِي . دقات قَلْبِي سَعِيدَة . . نَعَم أطربني الدَّرْس وَلَكِن الكمشة أسعدتني أَكْثَر . لَاحَظَت أُمِّي بَشَاشَة صَارَت تُهِلّ مِنْ وَجْهَي ، قَالَت أَنَّهَا سَعِيدَة بِي ، لِأَنَّنِي أَحْمِل أَخِي الصَّغِيرَ فَلَا أَمْتَعَض . أَخْبَرَتْهَا أَنَّهُ أَخِي ، وَأَنِّي أُحِبُّ أَنْ يرافقني فِي أَحْلاَمِي . .كان درس اليوم التالي عن دقات القلب. كنت

أَسْتَمَع و قَلْبِي يَتَسَارَع . رَجَعْتُ مِنْ الدَّرْسِ مُهَرْوِلَا لَأَجِدُ فِي كَفِّ متولي كَمْشَةً جَدِيدَة بِهَا مِائَةَ جُنَيْهًا . . عَرَفْت وَقْتهَا أَنْ متولي كَنْزٌ كَبِيرٌ لِي . . لَن أتركه ، كَمَا أَنَّنِي لَن أَدَعه يَتْركْنِي . . بِهَذَا الْمُعَدَّل يَا متولي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحَقَّقَ أَحْلاَمِي فِي كليتي العَتِيدَة . . أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْتَرِيَ حِذاءً جَديداً ، كَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أطبع المذكرات. صِرْت حَرِيصًا كَي أَخَذ متولي مَعِي، وتساءلت فِي طَرِيقِي عَنْ أُولَئِكَ الْمَجَانِين الَّذِين يَتْرُكُونَ أَمْوَالَهُم فِي كَفِّ أبِلِه . لَم أَذْهَبْ إِلَى الدَّرْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ . تَرَكْت متولي هُنَاك وَذَهَبَت غَيْر بَعِيد ، أتلصص مِنْ وَرَاءِ حَجَر ، كَي أَرَى أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ أَمْوَالَهم عِنْدَ متولي . وجدت زميلتين ، عرفتهما مِن دروسي الْمَاضِيَة ، يَسِيرَان نَحْو متولي ، حَتَّى جَلَسْت عِنْدَهُ إحْدَاهُمَا عَلَى رُكْبَتَيْهَا، وهي تنظر نحوه في حنان، وتمسح عنه ريقه الذي كاد يسقط من فيه، ثم تضع كمشة في كفه، وإذا بالأخرى تضع كمشتها، ثم تمضيان. مغفلتان!

لم تمض دقائق حتى وجدت زميلا، عرفته كذلك من المحاضرات السابقة. وجدته يهرول نحو متولي، ويربت على وجهه، ثم يترك كمشة، ويسأله الدعاء، ثم يمضي .

ما أجمل المغفلين في هذا العالم إذن!

حملته على عاتقي فوجدته في وزن الريشة. لم تعد ثقيلا يا متولي. صرت أشعر وكأنك أنت من تحملني يا رجل !

فِي الْعشاء نَظَرْت لِي أُمِّي نَظرَة طَوِيلَة . قَالَت إنها تحبني كَثِيرًا ، وَأَنَّهَا تُقَدِّرُ مَا أَفْعَلَهُ لِأَجْلِهَا وَأَجَل أَخِي . قَالَت إنَّهَا قَرَّرتَ أَن تَخَف عبئي، وَإنها قَدْ وجِدَتْ مَكَانا تَتْرُك فِيه متولي قَبْل ذَهَابهَا إلَى الْمَجْمَع السكني، وَإِنَّنِي لَن أَخَذَه مَعِي غَدًا . هيهات!

صَرَخَت فِي وَجْهِهَا مُعَنَّفًا . لَن أتركه يَا أُمي . متولي أَخِي ، كَيْف لِي أَنْ أتركه وَقَدْ رافقني طِيلَة الْأَيَّامِ الْماضِيةِ . كلَّا لَن أَسْمَح لِأَحَدٍ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنِّي. وجدت فِي عَيْنَيْهَا انْدِهاشا. ربتت عَلَى كَتِفَي ، كَمَا أهدتني قَبْلَة عَلَى جَبِينِي ، وَعَيْنَاهَا مفعمتان بِالرِّضَا. في الصباح قال لي زميلي شيئا لطيفا. إن ثمة طفل معاق في أرض خربة قريبة من مشفى الكلية..ابتسامته جميلة، كما أنه مبارك، حيث أن جميعهم قد لاحظ أن ذلك الطفل إذا ما ابتسم لأحد فإنه بالتأكيد سوف ينجح في امتحان اليوم. أكد لي زميلي أنه جربها بنفسه، وأن ذلك الولد مبارك حقا، وأن ابتسامته حلوة كالقمر!

لقد بلغت شَهَرَة متولي أرْجَاء الْكُلِّيَّة إذْن ! لطالما كُنْت ألعن الْجَهل، وألعن الْمُغَفَّلِين الَّذِين يَتَمَسحُون فِي أفْكَارٍ بالِيَةٍ ، وَعَقَائِد غَرِيبَة ،

لَكِنِّي الْيَوْم أعشق جَهْل الْجَاهِلِينَ ، وَعَشِق الْمُحِبِّين . . فَكَّرْت كَيْف لِطَلَبة ينهلون مِنْ الْعُلُومِ مَا نهل أَنْ يَكُونُوا بِهَذَا الْجَهْل، لَكِنِّي سُرْعَانَ مَا نَفَضْت عَنِّي هَذِهِ الْأَفْكَار خَوْفًا مِنْ أَن يَقْرَأَهَا زَمِيلِي بَيْنَ عَيْنِي، وأومأت بِرَأْسِي مُوَافِقًا، وَمَضَيْت فِي طَرِيقِي وَقَلْبِي يَرْقُص مِنْ سَعَادَة.. كَان لَدَيّ مُهمة مُحَدَّدَة؛ أَلَّا يُلَاحِظ أَحَدُهُم أني أَخَذ متولي وأمضي . لَا أُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ أَحَدُهُم أَن محبوبهم ذَا البسمة الْمُشْرِقَة الْمُبَارَكَة تِلْكَ هُوَ أَخِي الَّذِي أَحْمِلُه فَوْق عَاتِقِي . .كان علي أن أنتظر إذن حتى يَحِلّ اللَّيْل بِبَعْض سَوَادَه ، فَأَحْمِل متولي عَلَى عَاتِقِي خِلْسَة، وَأَذْهَبُ بِهِ مُسْرِعا نَحْوَ الْبَيْت، وَأَنَا أخمن عَدَد الكمشات الَّتِي قَدْ يَكُونُ قَبضهَا فِي ذلك الْيوم نَظِير بسمته الْبَلْهَاء ! . لمّا سَأَلْتِنِي أمي متعجبة عَنْ سِر تَأَخَّري أجبتها فِي بساطة، أَن الدروس في الْكُلِّيَّة تَمْتَدُّ إلَى اللَّيْلِ أَحْيَانًا ، وَإِنِّي لابُد أَنْ أتحلى بِالصَّبْر ، وَأَنَّهُ لَيْسَ عَليها أنْ تقلِق عَلَى أَخِي ، لِأَنَّهُ فِي يد أَمينة تهْتم بِهِ مِثْلها . كما أَنها سَأَلْتنِي مُؤَخَّرًا لِأَنَّهَا لَاحَظَت أَنِّي لَمْ أعُدْ أَطْلُب مِنْهَا مَصْرُوفِي كَالْعَادَة. أجبتها فِي زَهْو أَن مُكَافَأَة تفوقي تَكْفِينِي، وَإِنِّي مُثَابِرٌ عَلَى دروسي ، وَلِذَلِك فَإِن الْكُلِّيَّة تَمْنَحْنِي مَزِيدًا مِن الكمشات تشجيعا !

ولكن الأمور تعقدت في الأيام الأخيرة. لَمْ يَعُدْ متولي يَبْتَسِم كَعَادَتِه . صَارَ فِي وَجْهِهِ أَمَارَات أَلَم ، كَمَا أَنَّ حَرَارَتِه قَدْ اِرْتَفَعَتْ ، وَقَدْ صَدَرَ أَزِيز عَجِيبٌ مِنْ صَدْرِهِ .

غَاب متولي عَنْ الْأَرْضِ الْخَرِبَة. وَغَابَت مَعَه الكمشات والنفحات . سَمِعْت بَعْضُهُمْ فِي الْكُلِّيَّةِ يسأَل أَيْن ذهب الْولد المُبارك. وجدت بَعْضهُمْ وَقَدْ تَشَاءَم كأن متولي هُو أيقونته وَسِر نَجَاحِه الصَبَاحِيّ ، فَأَيْن ذَهَب يَا تُرَى ؟ !

كُنْت مُهْتما بِعِلَاج متولي بِنَفْسِي . لَا بد أَن يَسْتَعِيد صِحَّته سَرِيعًا . . شَحَت الكمشات وتضاءلت أَحْلامي يا متولي . . قم وَانهض وكن مُفِيدًا أَيهَا الْأَبْلَه ! وَلَكِن الْوَلَد لَمْ يَسْتَمِعْ إلَيّ. سَاءت حَالَته، وأزيز صَدْره يَعْلُو وقد تسارعت وتيرة أَنْفَاسه.. وجدت أُمي تْبكي، وَهِي تحتضنه بين ذِراعَيها فِي هَلِع. مَسَحَت عَنْه رِيقَه الَّذِي تَدَلَّى مِنْ فِيهِ ، وَقَدْ فقدَ هُو بسمته التِي اعْتَادهاا النَّاظِرُون إلَيْه . قَرَّرْت أَن أَخذَهُ فِي الصَّبَاحِ إِلَى المشفى ، وليعرف الزملاء أَنه أَخِي..لَا يَهُم . .

لِمَا دَقَّت الثَّامِنَة ذَهَبَت إِلَيْه كَي أَحْمله ، بَيْدَ أَنِّي وَجَدْته بَارِدًا كَالثَّلْج ، وَعَيْنَاه شاخصتان إِلَى السقْف ، وَقَدْ سكنَ قَلْبه إلى الأبَد .

موت متولي فاجِعَة كسرت قَلْب أُمِّي الْمِسْكِين ، كَمَا أَنَّهُ كارثة حَلَّت عَلَى مُسْتَقْبِلِي فِي تَحْقِيقِ حلمي . هَل سأستطيع بعده أَنْ أَسْتَكْمَلَ دراستي ؟ مِن سَيَقُوم بِالصَّرْف عَلِيّ؟! مِن سيأتيني بالمذكرات، وبقميص وَحِذَاء جديدين ؟ من سيهبني الكمشات غَيرك يا متولي ! بكته أُمِّي بحرقة ، بَينما بَكَيْت أَنَا مُسْتَقْبِلِي وأحلامي .

فِي الْكُلِّيَّةِ تَنَاثَرَت عَلَى مسامعي أَسْئِلَة حَائِرَة ، وَرَأَيْت وُجُوهًا كَثِيرَة واجمة؛ كَانَتْ قَدْ اعْتَادَتْ أَنْ تُصْبِحَ عَلَى متولي قَبْلَ كُلِّ دَرْسٍ وَامْتِحَان. أَيْنَ ذَهَبَ الْولد المُبارك ؟ أَيْنَ ذَهَبَ ذُو الابْتِسَامَة الْجَمِيلَة والبريئة ؟ هَل أَخَذَتْهُ أُمُّهُ إلَى مَكَان آخَرَ ؟ كنا نَوْد لَو نقَابِل تِلْك السيِّدة المحظوظة ، فنخبرها أَن لَدَيهَا كَنْزًا ثَمِينا فِي عَيْنِي ذَلِكَ الولَد . أَرَدْنَا أَنْ نخبرها أَن ابتسامته فِي الصباحِ كَانَتْ تعدِلُ مزاجنا إلَى الْأَحْسَنِ كُلَّ يَوْمٍ . سَمِعْت أَحَدَهُمْ يُقْسِمُ أَنَّهُ كَانَ يَطْلب مِنْ متولي أَنْ يَدْعُوَ لَهُ ، فَإِذَا مَا نَظَرَ إلَيْهِ متولي وابتسم ، عرف أَنَّ الْحَظ سيبتسم لَهُ أَيْضًا . أَمَّا إذَا لَمْ يَكْتَرِثْ ، وَنَظَرَ إلَى اللاشيء فِي السَّمَاءِ ، أَدْرَكَ أَنْ التَّوْفِيق لَنْ يَكُونَ حَلِيفُه يَوْمِهَا!

تساءلت فِي مَرَارَةِ : هَلْ كَانَ قَدْرِي سَيِّئًا أَن جَعَلَنِي أَخَا لِمتولي ، أَم أَنهُ قَدرهُ السيء أنْ جَعَلَهُ أَخَا لِي . شَعَرْت وَكَأَن الْقَدْر شَيخ يتكيء عَلَى

سحابة؛ يَنْظُرُ إِلَيَّ بسخرية مِنْ فَوْقِ ، وَقَدْ جَعَلَ مِنْ وَلَدِ مُثَابِر عَلَى الدَّرْسِ وَالْعِلْم مُجَرَّد طَالب لَا يعرف عَنْهُ أَحَد ، بَيْنَمَا جُعِلَ لِوَلَدِ مَشْلُول الدِّمَاغ شَهرَة وَقَبُول وَسَط كُلّية عِلْمِيَّة عَرِيقَة !

قَرَّر الزملاء مِمَّن اعْتَادُوا أَن يزوروا أَرْض متولي أَن يبحثوا عَنْه . عَرَفْت أَنَّهُمْ يَقُومُونَ بِالتَّحَرِّي . أَصَابَنِي الْخَوْفِ أَنْ يَعْرِفُوا السِّرّ . سَمِعْت أَحَدهُم يَزْعُمُ أَن لَهُ أُختا هي مِنْ كَانَتْ تَتْرُكُه . . سمعْتهُمْ يَقُولُون إنّها كَانَتْ تَتْركه ، ثُمّ تسترده فِي الْمَسَاء ، وَأَنَّ تِلْكَ الصَدَقَات التِي كَانُوا يضعونها فِي كَفِّهِ إنَّمَا هِي للمشفى الَّتِي تُعَالَج فِيهَا أُمّه الْمَرِيضَة . وَجَدْتها كَذبَة معقولة . عضدتها بِأَن زعمت أَنِّي وَجَدْته مَرَّة وَبِجَانِبِه فَتَاة كَأَنَّهَا أُخْته . سَأَلَنِي زُمَيْل عَن شَكلها ، تَظَاهَرَت بأنّني أَتَذْكر . . نَظَرْت إِلَى السَّحَاب وَأَنَا أدقق ، غَيْرَ أَنِّي هَزَزْت رَأْسِي وَقَد فَشلت فِي أَنَ أَتَذْكُر شَكْل الفَتَاة . فِي اللَّيْلِ وَجَدْت ذَلِكَ الشَّيْخُ يتكيء فَوْق السَّحَاب ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ بسخرية ، وَيَضْحَك مِلء شِدْقَيْه . هَلْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ يَسْكُن فَوْق السَّحَاب ، أَمْ كَانَ يَسْكُنُ فِي إحْدَى تِلْكَ الْغُرَفِ الْأَرْبَعَةِ فِي الْقَلْبِ ؟ فِي الْمَسَاءِ ذَهَبْتُ إِلَى مَحَلِّ لِلتَّصْوِيرِ وَفِي يَدِي صُورَة قَدِيمَة لمتولي وَهُو يَبتسم . طَلَبْت أَنْ يُكَبِّرهَا حَتَّى تكُونَ فِي طُولِي . وَاشْتَرَيْت كُرسِيا بعجلتين . لمّا دَقَّت الثَّامِنَة فِي الصباحِ ذَهَبْتُ

إِلَى الْأَرْضِ الْخَرَاب قرب المشفى ، وَوَضَعَت الصُّورَة فَوْق الْكُرْسِيّ وَذَهَبَت . لَمَا حَلَّ الْمَسَاء رَجَعَت لَأَجِد الْكُرْسِي وَفَوْقَه الصُّورَة المكبرة ، وَتحتهاَ عَشَرَات مِنْ الكمشات ، فَبَدَت كَأَنها أَجْنِحَة فراشات فَوْق أَكْوَام الْحِجَارَة . أَخَذَت أَعَدّ حَصِيلَة الْيَوْم . وَفِي الصباح وجدت وُجُوه زملائي وَقَدْ عَادَ فِيهَا بَعْضُ الْأَمَل . بادلتهم وَجْهًا بَاسِما ، بَيْدَ أَنِّي رَأَيْتُ ذَلِكَ الشَّيْخُ يتكيء دَاخِل إحْدَى الْغُرَفِ فِي صَدْرِي وَهُوَ يَضْحَكُ مِنِّي!

هيبة

تكذب عليّ يا محمود. أنت لم تذهب إلى المدرسة البارحة، ولا اليوم. أين كنت؟ لا شيء يعيبك صدقني. من قال إن الطول عيب؟ حتى لو أنك تنحني قليلا في وقوفك كي لا تلامس رأسك السقف فإن ذلك لا يضر.

لا فائدة. أحاول أن أسترضيه ولكني أفشل في كل مرة. لم أبخل عليه عند الأطباء. كلهم زعموا أن المشكلة هي فرط هرمون النمو لديه، وأن عليه أن يتعايش مع طوله المفرط، والذي كسر حاجز المترين ونصف المتر، رغم سنين عمره التي لم تتجاوز الثانية عشرة! أقول له إن الطول هيبة، وأن المفترض أن يكون فخورا بجسمه هذا، إلا أن أقرانه يستهزئون. أبو طويلة. نخلة. زرافة. وأخيرا سمعت أحدهم يهمس في أذن صاحبه وهو يشير نحوي بطرف عينه الساخرة: أم اللوح.

كم من مرة قلت لمحمود ألا يعبأ. وإن الإنسان قيمته في خلقه، ونفعه. ربيت محمود على الأخلاق، وأن الصدق هو تاج الأخلاق وخاتمها معا.

في الأسبوع الماضي جاءني اتصال مفاجئ من المدرسة. أم محمود. ابنك لم يحضر إلى المدرسة منذ ثلاثة أيام. خيرا هل هو مريض؟ خبطت على صدري مذعورة؛ ثلاثة أيام! أين يذهب إذن؟

حضر بعد العصر مثل كل يوم، جهزت له الغداء، ثم قررت أن أواجهه، فأسأله وأنا أحدق في عينيه مباشرة. لن يستطيع الكذب أمام عيني. غير أنه قد راعني شيء غريب. محمود لم يعد ينحني كي لا تلامس رأسه السقف. إنه يقف مستقيما! ذهبت أفكاري كلها وابتلعت ريقي. لم أتفوه بكلمة. تركته وذهبت.

في اليوم الذي تلاه حدقت فيه وهو يدلف من الباب. محمود لم يعد يحتاج إلى أن ينحني حتى وهو يدلف إلى باب البيت! إن طوله يقصر! سألته:

- أين كنت؟

قال في برود:

- المدرسة.

يا له من كذب بارد وثابت.

في اليوم التالي حضر محمود. كان طوله في مثل طولي. سألته فأصر أنه كان في المدرسة. هل يذهب إلى طبيب؟ وهل يستطيع إن كان يفعل أن يقصر طول الولد؟

بعدها صارت الأيام كابوسا مرعبا. لم يعد محمود ولدا طويلا، بل لم يعد طوله مناسبا أبدا. قصر محمود بشدة في الأيام التالية. صارت رأسه في مستوى كتفي، ثم قصر حتى صار عند ركبتي. صرت أبكي بشدة وأنا أنظر إليه، وأحمله بين يدي كأنه قط :

- محمود أين كنت؟

يجيبني:

- في المدرسة ماما. في المدرسة.

ذهبت إلى مدرسته كي أستطلع الأمر. عرفت أنهم ينوون فصله منذ مدة، وأنهم قد أرسلوا إنذارات بالفصل لغيابه المتواصل. قلت إنني لم أتحصل

على أي خطاب منهم، ولكنهم أكدوا أن لديهم ما يفيد استلامي لإنذاراتهم وتوقيعي!

رجعت إلى البيت. ظللت أبحث عن محمود في كل مكان. تحت الأريكة. تحت الكراسي، والطاولة. وجدته أخيرا يقف تحت السرير. حملته وكان ينتفض من فرط البكاء، وقد كان في حجم الفأر. نظرت في عينيه، وفرائصي ترتعد من فرط الشعور. الصدق يا محمود هو علاجك الوحيد. مذ تكذب وأنت تقصر. أدمنت الكذب حتى صرت كالفأر. لا تكذب على أمك. بل لا تكذب على أي أحد. وقتها ستعود.

لست أذكر ما حدث بعدها. لكنه لما حضر في اليوم التالي بعد العصر وسألته قال كذلك إنه كان في المدرسة. راعني أنه كبر فصار عند ركبتي. بعدها بيوم سألته كذلك وأجابني ذات العبارة، كما أنه قد أصبح عند كتفي.

بعدها بيومين حضر محمود. وجدت رأسه تكاد تصل إلى مستواي. ابتسمت وقد تركت له رأسي يقبلها، ويقول في رضا:

- لن أكذب بعد اليوم يا أمي. أبدا !

تركني وذهب. نظرت إلى السقف وأنا أفكر. ربما نحتاج إلى بيت جديد بسقف أعلى بعد أسبوع على الأكثر. نظرت إلى نفسي في المرآة. ساءلت نفسي ترى كم يبلغ طولي أنا؟

القطة

هذه المرة كانت حروفها واضحة. نظرت نحوي وهي رابضة على الشباك المفتوح على الحديقة الأمامية، ونطقت بصوت مسموع «جائعة» ربما كانت مجرد خيالات في المرات السابقة أما هذه فلا. الصوت واضح والحروف منطوقة بشكل سليم. عفريت؟! ربما! أسمع أن الجن يأتي في صورة القطط. ولكنها ليست سوداء، كما أن ذيلها ليس مفقودا كما كانت تقول جدتي عن شكل العفاريت حين تأخذ شكل قطة.

- امم. ربما هي هاربة من بلاد العجائب!

قالها في هدوء، وفي يده غليونه الوثير، وقد علا الدخان شاربه الكث. إنه صديقي السير آدمز، يزورني كل مدة، حيث يمد عينيه الزرقاوين سارحا في أمد الفراغ الممتد أمام شباك الغرفة. سألته متهكما وقد عصبني بروده:

- وهل تؤمن بوجود تلك البلاد يا آدمز! كانت مجرد قصة اختلقها كارل لويس للمراهقين.

- يقولون لا دخان دون نار، وأنا أقول لا خيال دون واقع يستند عليه.

- هذا جنون!

لمحت شبح ابتسامة نبتت وراء غابات شاربه، وهو يردف:

- هكذا كانت تبدو حقائق اليوم منذ سنين مضت. مجرد أطياف للوهم، ثم صارت حقيقة لا تنكرها العيون.

كاد بروده أن يهيج عندي رغبة في السباب.

كانت كاميلا هي الأخرى جالسة على طرف سريري- هي أيضا صديقتي- تتشح بوشاحها الأخضر الذي تركته ينسدل ليغطي ما استطاع من جسدها الأسمر، وذلك القرط المدور يزين أنفها الكبير، وعلى جبهتها نقطة حمراء تشبه قرص الشمس وقت المغيب.

- ربما هي جدتك تزورك.

- هل تسخرين مني؟ جدتي الميتة تأتي لتزورني على شكل قطة؟!

أغمضت عينيها وقالت وقد ضمت كفيها في إيمان:

- أرواحنا لا تذهب بعيدا. بل هي تولد من جديد ولكن في أجساد مغايرة.

نفخت في قوة، وقد كاد صبري ينفد:

- الإيمان والجنون عندك وجهان لعملة واحدة يا كاميلا.

لم تبد اهتماما. حتى أنها لم تلحظ وجود دكتور محي صديقي القديم من أيام الدراسة. أهلا محي. أين كنت. طالت الغيبة! لاتزال أنفك الهزيل تحمل هذه النظارات الثقيلة!

كأنه لم يسمعني. ظل يرمق القطة على طرف الشباك، وقال وهو يجلس على كرسي مجاور:

- هي طفرة وجدت طريقها في هذه القطة. طفرة تعني أن القطط سوف تتكلم في المستقبل القريب.

نظرت إليه مشدوها. قال:

- دورنا هو أن نحافظ عليها، وأن نقوم برعايتها كي تنقل هذه الصفة الوراثية لسلالة جديدة من القطط.

- بل إنها جن كافر ولابد من الخلاص منه.

شق الصوت فراغ غرفتي، فوجدناه يأتي من أمام الباب. كان الشيخ عرفان. بدا غاضبا من كلام دكتور محي.

- ومن أنت كي تفهم في علوم الأحياء؟

سأله محي مستنكرا.

- لا أفهم فيها، ولكني أعرف في أنواع السحر و أعمال الشياطين.

قال دكتور محي ثائرا:

- إن تخلصت من القطة وقفت في طريق العلم.

- بل أكون قد حاربت شيطانا مريدا جاء على شكل قطة.

قالها الشيخ عرفان في عناد وثبات.

أكلتني الحيرة.

توجهت بناظري نحو السير آدامز. وجدته يدخن غليونه وهو يرمق الفراغ عبر شباك الغرفة. ويقول في هدوء:

- قطة هاربة من بلاد العجائب.

استدرت نحو طرف سريري. بدت كاميلا كأنها تصلي وهي تضم كفيها وقد انحنت برأسها نحو الأرض وعيناها مغمضتان، وتهمس:

- بوركت روح الجدات.

نظرت نحو الدكتور محي والشيخ عرفان وكانا يتبادلان نظرات غضب وتحد. رمقت القطة من جديد. كانت لاتزال رابضة على سور شباكي وهي تنظر إلي.

دلف زغلول الممرض أخيرا. نظر إلى ساعته، وقال وهو يمسكني من معصمي:

- ميعاد الجلسة.

تركتُ له معصمي مستسلما. لم يكترث له أحد، كما أنه لم ينظر إلى أحد. حتى أنه لم يلحظ القطة وهي تتأملني خارجا من الباب، وقد هشت ذبابة بطرف أذنها وهي تهمس لي: «جائعة»

آخر ما كتب الجلاد

كل أحداث القصة من وحي الخيال المحض، أو هي من شذرات الماضي البعيد، وهي لا تمت بأي صلة إلى واقعنا اليوم، حيث أنعم الله علينا في هذه الأيام بالعدل الناجز، والخير، والديمقراطية المنصفة.

شكرا لحظوظنا التي جعلتنا نعيش حتى نرى هذه الأيام.

****

لست أخشى الموت، ولا أهاب الحساب. المشكلة فقط في الكيفية والوسيلة. أريد نهاية شريفة، كنهاية جندي يحمل بندقية فترديه طلقة على الصدر في ميدان المعركة. لم أجرب المعارك. لم أعرف كيف أصارع طرفا يكافئني في القوة والرغبة. لم أجرب إلا أن أكون قويا، وأن يأتيني مخلوق هزيل وذليل، فتفور في نفسي شهوة البطش، وتثور فيّ النشوة حين أسمع صوت الصراخ، والاستجداء. حين أرى شكل الجلد يتمزق، ومنظر الدم وهو ينزّ. رائحة القيح، مع صوت الأنّات، والتوسلات.

كنت جذر الدولة. أساسها وخرسانتها المسلحة. وكلما ازدادت سفالتي علت هيبتنا وعزت. أعداؤنا في كل مكان. لقد تخطوا الحدود وصاروا حولنا كالهاموش. وقد تعبت. من يظن أن عملي ليس مرهقا إلى حد الإنهاك؟

هل تستطيع أنت أن تجفل ليلا وصراخ أحدهم لا تزال أصداؤه تمتد في أركان نفسك كالأخطبوط؟ كانت تثور شهوتي حين أضع العصا في مؤخرة العصاة ولكن صوت أنينهم بعد أن أنتهي لا يبرح أذني ويصيبني بالصداع. أذكر أني طلبت أكثر من مرة أن أترك العمل وأستقيل، لكن كان طلبي دوما ما يواجه بالرفض. الرفض التام والصريح، والذي يخالطه نظرات الوعيد. الاستقالة في مثل هذه الظروف خيانة. وعملك شريف وطاهر. تذكر أنك من دعائم هذه الدولة المحترمة. وأنك جندي مجهول في ساحة المعركة. معركة؟؟! كم أتوق إلى معركة. أريد أن أتلقى الضربات. أن أقاوم. أن أضحي لأجل فكرة أو من أجل قضية!

قررت أخيرا أن أخوض معركة. ربما يتوقف صوت الأنين اللعين ذاك عن أكل أذني. أو ربما تتوقف أنفي عن شم القيح والدم.

«أنا هو»

قلتها وأنا أشير إلى صدري. قصدت أن أجعلها واثقة ومستفزة. وجدت في عينيه نظرات التردد والخوف. لم ينظر إلى عيني. بلل جبينه العرق البارد. قال وصوته يتهدج:

- لم أفهم.

- أنا الجلاد الذي قتل أباك.

ارتعشت شفتاه. قال وهو يتحاشى النظر:

- مات أبي على فراشه.

قررت أن أسدد ضربتي الأخيرة. شققت قميصي لأكشف عن صدري العاري.

- خذ حقك.

ارتعدت فرائص الرجل كفأر مبتل. ركع على ركبتيه كي يقبل قدمي. قال في توسل:

- أرجوك دعني أمضي إلى حال سبيلي.

جن جنوني. إن الجبان يرفض حتى أن يمنحني شرف الصراع. سجد على الأرض وهو ينتحب. قبل قدمي. لعق الحذاء. هتفت:

- لقد سرقت شرفك. أتفهم؟ سرقت شرفك.

انسلَّ من بين يدي كضفدع. اتجه صوب الباب، فتحه وركض كمن يهرب من شيطان. لم يمنحني شرف الصراع. الجبان!

هل أستطيع أن أجد غيره؟ ومن يدريني أنه لن يكون أحقر؟ أخبرته أني سرقت شرفه ولم يحاول حتى أن يحاول!

لم أعد أحتمل. صوت الأنات يدق في رأسي كالطبل. رائحة القيح تزكم أنفي، ومنظر العصا في المؤخرات يحجب عني ضوء النهار. أهو عذاب الضمير؟ هل معركتي ستكون مع ضميري إذن؟ لماذا أنا؟ فوق الأرض مئات الجلادين، وتحت الأرض ألاف، فلماذا لم يصحُ إلا ضميري التعس؟ هل يكابدون ما أكابد؟ ضاق صدري حتى كدت أختنق. هربت إلى الشارع وأنا أحاول أن أصل إلى شعاع الشمس.

وجدتها أمامي. امرأة كبيرة تعرج في مشيتها وتحمل حقيبة خضار.

كانت مناسبة!

اندفعت نحوها وخطفت الحقيبة وركضت. صرخت:

- حرامي!

وجدت جيشا من الرجال يزمجرون وهم يركضون ورائي.

وجدت معركة في الأخير!

الكف الحاني

كنت في السابعة حين حدث الأمر أول مرة. كانت الواحدة ليلا، بينما يتدلى رأسي من الشباك، في الدور الخامس، وأنا أحدق في خيال رابض تحت باب منزلنا، حين أفلتت يدي فجأة، لأجدني أسقط حرا هكذا في الهواء. لم يكن ثمة أحد في الشارع، حتى ذلك الخيال الرابض ذهب واختفى، بينما أهبط بجسدي الضئيل نحو الأرض. وقتها ظهر ذلك الكف الكبير، وحملني عبر راحته قبل الارتطام بمتر أو مترين، وصعد بي إلى غرفتي عبر شباكي، ليضعني على الفراش، ويربت على كتفي في حنان، ثم يمضي!

لما طلع النهار حكيت لأمي، ضحكت وقبلت رأسي وهي تحسدني على خيالي، وطلبت ألا أتدلى برأسي من الشباك، حتى لا يحدث ما حلمت به بالأمس. كانت تراني أحلم، وفي البداية صدقتها.

في الليل وبعد أن ذهب الجميع للنوم، نظرت إلى الأسفل عبر الشباك، لم أجد أي خيال، ولم أجد حتى أي كائن يسير. ولكني تعمدت أن أتدلى برأسي، ثم تركت يدي كي تفلت، ووجدتني أسقط حرا عبر الهواء إلى الأرض، وقبل أن أرتطم بمتر أو مترين، ظهرت الكف الكبيرة مجددا، وحملتني، ثم وضعتني في فراشي بعد أن ربتت علي!

لم أخبر أمي. لم أحب تلك الابتسامة على شفتيها، ولا تلك القبلة التي طبعتها على رأسي، وهي تنكر وجود ذلك الكف الكبير هكذا بسهولة، واعتبرتها نوعا من الاستهزاء وإنكار الجميل بعد أن حمتني من الموت المحقق، معللة ما يحدث بأنه مجرد حلم.

صرت أتدلى كل ليلة، قبيل الفجر، وأفلت يدي، وأسقط، فتلقفني تلك اليد، الكبيرة، وأنا أتمرغ فوق راحتها متدللا، وترفعني في الهواء حتى تضعني في فراشي، فأنام بعدها قرير العين، شاكرا لها صنيعها الجميل. كان السر في صدري كبيرا إلى الحد الذي يصعب معه الكتمان، ولم أجد في عيون أمي أنها تصدقني، ورأيت أن الكف الكبير يستحق أن يُعرف، وأن يشكره جميع الناس، بل وارتأيت أن أولاد الجيران وبعض زملاء دراستي، يستحقون أن يتعرفوا على ذلك الكف الحاني، ولكن وبعد أن بحت بسري هذا صارت الأحداث تتوالى في سرعة وجنون.

بعد يومين وقفت الناظرة وخلفها المعلمون، وطوابير التلاميذ كلهم حدادا على روح زميلنا الفقيد، حيث وجدوه ملقى على قارعة الطريق، أسفل بيته، بعد أن سقط من شباك منزله من الدور السابع.

لم يمر يومان آخران، حتى سمعنا صراخا ذاهلا وأسيفا، يخرج من بيت جارتنا، بعد أن وجدت وليدها الوحيد ملقى على الأرض إثر ارتطام هائل بعد سقوط من الدور العاشر.

تكرر الحداد في المدرسة بعد يومين، وكذلك الصرخات من البيوت في جوف الليل، لا يكاد يمر ثلاثة أيام حتى نسمعها تخترق الحجب، وتصم الأذان، وهي تعلن أن ثمة سقوط جديد.

ما عدت أغفل عن تلك النظرات بعدها. العيون وهي تضيق حين تشخص نحوي وحواجبها مرفوعة بشيء من المقت، والشك وكثير من الريبة!

ثم حدث أن وجدنا دقا عنيفا هادرا على باب منزلنا. كان جارنا في العمارة المجاورة لنا، دلف إلينا وهو يلبس فانلة داخلية قصيرة، تكشف عن صدر بشعر كث، وكرش كبير متدل، وصدره يعلو ويهبط في انفعال، وقد تصبب منه عرق غزير، وهو يدفع ابنه أمامه، وقد بدا ضئيلا أمامه كفأر مبلول.

- ابنك الملعون يقتل أولادنا!

قالها في انفعال هائل لأبي، الذي وقف ذاهلا ومضطربا، غير مستوعب أو مصدق.

أردف الرجل بصوت هادر وهو يشير إلى ابنه الضئيل:

- كان سيتسبب في موت ابني، لولا ستر الله، لما استنقذته من الموت.

نظر إليه أبي، ثم نظر إلي وهو يهز رأسه في استغراب، فأشار الرجل إلى ابنه كي يتكلم، فما كان من ابنه الضئيل إلا أن نظر إلي بعين مكسورة، وهو يزرد ريقه المتيبس، ويقول بصوت مبحوح وهو يشير نحوي:

- قال إن هناك كفا حانية تحملنا في الهواء، وتمنعنا من السقوط.

نظر إلي أبي في هلع، وهز رأسه في عنف، وقال الرجل بصبر نافد:

- سأبلغ الشرطة، وسيحققون، ولن يرحمك أحد.

ثم ذهب وهو يسب ويلعن.

لم تهدأ صرخات الثكالى. صارت تتوالى، ومن بعدها العيون تنهشني وأبي وأمي بنظرات ملؤها الغضب والمقت المشبوب باللعنات.

دخل أبي حجرتي بوجه أحمر، وعينان تغليان، وقال رافعا إصبعه محذرا:

- ستنكر كل شيء في التحقيقات غدا. كل شيء.

في التحقيق سألوني إن كنت قد سردت شيئا حول كف يطير، يحمل الأطفال، ويتلقفهم قبل سقوطهم. لم أنكر ما يحدث معي،

ولم أكفر بالكف أمام المحققين. قلت إن راحته تشبه السحابة، وإني أتمرغ فوقها قبل أن تضعني على فراشي وتتركني. وأنه يحدث كل ليلة، وأني مستعد أن أسقط أمامهم كي يروا الكف بأنفسهم. جن جنون أبي، ورأيته يبكي وهو يقبل أيديهم أن يرحموني. قال إني مجرد طفل، وأنه سيؤدبني على كذبي. في البيت ضربني بعنف. صفعني على وجهي، وسط صرخات أمي وهي تتوسل أن يكف عن ضربي.

وفي الليل، وقبيل الفجر، وقبل أن أمارس هوايتي في السقوط، سمعت تأوهات أبي. كان صوته واهنا، ينز ألما دفينا ووجعا. مشيت نحو غرفته على أطراف أصابعي، وأنا أحاول أن أسترق إليه النظر عبر حجاب الظلام. كادت صرخة تفر من بين شفتي، وأنا أرى ذلك الكف الحاني وقد دخل إلى غرفة أبي، يصفع وجهه في عنف، والعرق ينز من وجهه، ثم تلكمه في صدره، وقلبه، وهو يئن من الألم. في الصباح رأيته بعد أن قام من فراشه. ضعيفا واهنا، شاحب الوجه، وعلى كتفه وذراعه بقع زرقاء، وعرق غزير.

لم تمر أيام طوال، وأنا ألحظ أمي تبكي في خوف مكبوت، ووجه أبي يزداد شحوبا، وتلك البقع تزداد رقعة على صدره وذراعه. حتى سمع

الجيران حولنا صرخة امرأة تولول. لم تكن هذه المرة امرأة تصرخ على وليدها بعد السقوط، إنما كانت صرخة زوجة مغلوبة على أمرها، فقدت لتوها زوجها الضعيف، شاحب الوجه، والمليء بالبقع.

لم أشك لحظة أنه ذلك الكف، وأنها تلك الضربات التي رأيتها حين ذهبت في جوف الليل أسترق النظر إلى أبي وأنا أسمع أناته. أيها الكف الحاني، كم قسوت على أبي، فأوجعته بقبضتك الضخمة. كم كان عقابك قاسيا. أعرف أنك تستحق أن تعرف، وأن يراك الناس وأنت تحملني في ظلمة الليل، وأثناء سقوطي وقبل الارتطام.

واستجمعت شتات أمري، وبقايا شجاعتي. وذهبت إلى مدرستي رافعا هامتي نحو السحاب، غير مبال بنظراتهم نحوي. صعدت السلم في غير اكتراث، وهم يتهامسون عني، حتى وصلت إلى سطح المدرسة، ثم وقفت فوق السور الكبير، ونظرت إليهم في الأسفل، فوجدتهم صغارا، شاخصين نحوي في هلع، وقد تعالت صرخاتهم الجازعة. ها أنا أيتها الكف الجميلة أفي بوعدي، وما عليك سوى أن تظهري أمامهم ها هنا، فيعترفون بوجودك، ومن ثم يرجع أبي، وتفرح أمي.

نظرت إلى الفناء الواسع في الأسفل، ثم تركت نفسي تهوي إليه مطمئنة. وقبل أن يصل جسدي إلى الفناء بمتر أو مترين، لم يظهر ذلك الكف الحاني، غير أني وجدتني أجلس مع أبي في فضاء واسع. لم يعد وجهه شاحبا، وقد اختفت البقع، وعادت إليه فتوته. ثم رأيت فضاءنا يُفتح، وذلك الكف الكبير يحمل أمي، ويضعها عندنا في حنان. قبّلها أبي في شوق عظيم، وقبلتني، وصرنا نلعب ونضحك، ونأكل ونشرب، ونحن نتسامر حول ليالينا في صحبة ذلك الكف الكبير. ولكني نسيت أن أسأله: لماذا لم تظهر في ذلك اليوم كما كنت تفعل كل ليلة؟ لم أصر على السؤال ولم أهتم؛ فقد عاد لي أبي، وفرحت أمي.

أمونتاليدو

مترجمة

قصة قصيرة للكاتب الأمريكي/ إدجار ألان بو (١٨٠٩- ١٨٤٩)

**ترجمتي

بتصرف لكم سخرت مني يا فورشناتو، ولكم استهزأت باسم عائلتي «مونترسور» العريقة! لسوف أجعلك تدفع الثمن غاليا إذن. هكذا بهدوء، ودون أن تشعر. لن تشك في شيء مما أفعل. سأظل أبتسم في وجهك الكريه. ليس لك في الحقيقة، وإنما لأفكاري أنا ولما تحويه من خطة للانتقام.

إن فورشناتو رجل ذكي، كما أنه من ذلك النوع الذي قد تخشاه لقوته، غير أن لديه نقطة ضعف أصيلة: عشقه للخمر. هو رجل ذواق للنبيذ، ويستطيع التفريق بين أنواعها بسهولة. وكذلك أنا أفهم كثيرا في صنوفه، وأشتري منها المعتقة القديمة. إنها قنان النبيذ المعتق إذن ما سيأتيني بما أريد من انتقام.

كانت ليلة حالكة حين قابلته في الطريق. كان وحده.

كان دافئا ودودا على غير عادته، ورائحة الخمر تفوح من فمه،

ابتسمت له، وصافحته في حرارة.

- فورشناتو! كيف حالك يا عزيزي؟

- مونترسور! مساء الخير.

- في الحقيقة كنت أفكر فيك يا صديقي. سعيد أننا تقابلنا. كنت قد

اشتريت قنينة معتقة وأخبروني أنها من نوع أمونتاليدو.

- أمونتاليدو! مستحيل!

- أعرف أنه من الصعب جدا أن تكون هكذا. كنت أفكر في أن أسأل صديقنا لشريسي.

- لشريسي؟! هل تمزح؟ إنه لا يستطيع التفريق بين صنوف النبيذ.

- لكنهم يقولون إن خبرته تضاهيك يا فورشناتو.

- يا إلهي! دعنا نذهب إذن.

- إلى أين؟

- عندك في القبو. سأتذوقه وأخبرك.

- لا لا. لا داع يا فورشناتو. أراك لست على ما يرام.

- هراء! أنا بخير. هيا نذهب. أمونتاليدو! أحدهم يسخر منك يا مونترسور. لشيريسي! إنه لا يعرف شيئا عن النبيذ يا رجل!

قالها وهو يأخذني من ذراعي، متجها نحو قصري الصخري الكبير. كان قصرا كبيرا مملوكا لعائلتنا مونترسور منذ قرون. كانت خطتي تقتضي أن أخبر الخدم ألا يتركوا القصر هذه الليلة حيث أني سأبيت خارجا، فكان هذا بمثابة أمر مني أن يتركوه جميعهم!

وصلنا إلى القصر الكبير، وانتزعت شعلتين كانتا معلقتين على الحائط. ناولت فورشناتو واحدة، ثم اتجهنا نحو الدرج السفلي حيث الظلام الدامس يكاد يبلع أي بصيص. كنت أسبقه بخطوات، وأنا أنبهه إلى مواطئ أقدامه في ذاك السواد. هبطنا حتى وصلنا إلى القبو السفلي الأخير. هناك كانت رفات عائلة مونترسور ترقد في سلام، حيث لا شيء

سوى البرد القارص والظلام الحالك، وعظام متناثرة لأجساد من عائلتي المجيدة، وبعض من قنانيّ الخمر المعتق كنت أحتفظ بها وسط الرفات.

لم يكن فورشناتو في وعيه الكامل، وكانت خطواته ثقيلة، وعيناه مفتوحتين تحاولان أن تخترق الحجب، وهو يحمل شعلته ذات الضوء الضعيف، ثم تأقلمنا رويدا لما يلفنا من ظلمة، حتى استطعنا أن نرى الحوائط الصخرية الرطبة التي تشع برودة، وعظام عائلتي ترقد بجانبها في أكوام متراصة، وقنانيّ الخمر موضوعة فيما بينها في صفوف.

التقطت قنينة من وسط أكوام العظام، وكسرت الفوهة في الجدار الرطب، ثم قدمتها إلى فورشناتو.

- اشرب فورشناتو. إنها من نوع موديك. ستساعدك كي تبقى دافئا.

- أشكرك يا عزيزي. سأشرب من أجل هؤلاء الأموات الذين يرقدون بيننا!

- وأنا سأشرب في صحتك يا فورشناتو!

- اممم. لذيذ جدا! لكن أين أمونتاليدو؟

- إنها هناك.

مشينا إلى الداخل قليلا حتى وصلنا إلى غرفة أخرى حيث تتساقط قطرات من الماء من السقف.

قال فورشناتو:

- وكأن القبو واسع لا نهاية له!

- نحن عائلة كبيرة وعريقة يا فورشناتو، ولا يكفينا قبو صغير. أراك

ترتعد من أثر البرودة. هيا بنا نعود إذن.
- هراء! أنا بخير. دعني أحتسي رشفة من الموديك فقط.
أخذت قنينة أخرى من نوع «ديجرافي»، كسرتها في الجدار الصخري، ثم التقطها فورشناتو مني في سرعة وتجرعها دفعة واحدة. صدرت منه ضحكة ثملة، وهو يقذف بالقنينة بعيدا، ويستكمل سيره البطيء.
صار الهواء ثقيلا شحيحا حتى كادت مشاعلنا أن تخبو. ووصلنا حيث غرفة أخرى تراصت على جوانب جدرانها الثلاثة عظام على شكل أكوام ضخمة علت فوق رؤوسنا، بينما تناثرت على أرض الغرفة الرطبة عند الجدار الرابع. والذي وجدنا فيه فتحة نحو غرفة جديدة. كانت صغيرة ومعتمة فبدت كثقب كبير في الجدار.
- هناك يا فورشناتو. أمونتاليدو هناك!
سار فورشناتو بخطواته الثقيلة نحو الغرفة المعتمة. وكانت نظراته ذاهلة وفكره مشوش. كان ثمة سلسلتين معدنيتين تتدليان على كلا الجانبين، وكان في آخر إحداهما قفل من حديد. لم أفكر طويلا. دفعت فورشناتو نحو الجدار، وربطت حوله السلسلتين في إحكام، ثم أغلقت القفل الحديدي.
- فورشناتو! من فضلك. أريدك أن تتحسس الجدار لتشعر كم هو رطب وبارد. ألا تزال تريد البقاء هنا؟ حسنا سأذهب أنا إذن!
- ولكن. ولكن أين أمونتاليدو؟
- آه تذكرت!
شرعت أبحث من حولي حول العظام المتناثرة هنا وهناك. وجدت

القطع الصخرية التي كنت نزعتها من الجدار كي أصنع هذه الغرفة ذات السلاسل. بدأت أرص الأحجار كي أبني الجدار من جديد، بينما وقف فورشناتو مرتعدا.

- ماذا تفعل يا مونترسور؟!

استكملت رص الأحجار في عناية، وأنا أسمعه يهز السلاسل في عنف يائس.

- مونترسور! يا لها من مزحة! كم أنت لطيف!. لكم ضحكنا ونحن نشرب سويا.

- نعم بالطبع. ونحن نشرب أمونتاليدو!

- ولكن. ألم نتأخر؟ أظن أنه وجب علينا أن نعود الآن!

- نعم وجب علينا أن نعود!

لم يكن قد تبقى سوى الحجر الأخير.

- مونترسور! لأجل الله!

- نعم نعم. لأجل الله!

لم أسمع صوتا. صرخت:

- فورشناتو! فورشناتو!

وضعت الحجر الأخير حتى استكملت الجدار فلم يعد للغرفة الصغيرة من أثر. رصصت أكوام العظام بجانب الجدار حتى علت فوق رأسي.

تمتمت في خفوت وأنا أهم بالرجوع عائدا إلى الدرج:

- لترقد في سلام يا فورشناتو.

التقطت أذناي صوت صرخة ضعيفة، مملوءة بالخوف والوهن.

حكاية يرويها الخوف

مترجمة

مقدمة:

تصرفت في ترجمة عنوان القصة، حيث أن عنوانها بالإنجليزية : tell heart -The tale. وهو إن ترجم صار قصة يحكيها القلب، أو قصة يرويها قلب، ولكني وجدت أن أتصرف في العنوان أفضل، حتى وصلت إلى ذلك العنوان المكتوب: «حكاية يرويها الخوف»

هل تظن أنني مجنون؟!

صدقني لازلت أحتفظ بعقلي. ربما أكون مريضا بعض الشيء ولكني لم أفقد عقلي بعدا!. في الحقيقة صارت حواسي حادة، ومشاعري صارت أقوى، كما أن السمع عندي أصبح دقيقا وحادا. لكأني أسمع أصواتا لم أكن أسمعها من قبل. أصوات كأنها أصداء تأتي من السماء. أو.

أو كأنها تأتي من أعماق الجحيم!

اسمعني الآن يا عزيزي، وستعلم أني لازلت أحتفظ بعقلي.

لست أذكر كيف بدأت الفكرة في أول الأمر، غير أنها قد وجدت لها جذورا راسخة في دماغي منذ أن رأيت ذلك العجوز. لم أكن أكرهه.

حقيقة كان رجلا لطيفا وودودا. ولكن عينيه كانت هي مشكلتي!
كانتا حادتين كنصل يكاد يثقب روحي، أو كعيني صقر مريع، يرمق فريسته في صبر وتأن، حتى إذا ما خارت قواها واستسلمت انقض عليها في شراهة كي يمزقها إربا. كانت برودة عجيبة تسري في أوصالي كلما نظر إلي بتلك العينين. لذلك اتخذت قراري يا عزيزي، بأنه لا بد أن تنتهي تلك النظرة المشئومة إلى الأبد، وأنه لا بد له أن يموت.
هل ما زلت تظن بي الجنون؟ وهل يستطيع المجنون أن يفكر أو يدبر خطة؟
شرعت في خطتي. كنت لطيفا معه جدا طوال الأسبوع الماضي.
وفي كل ليلة، وفي تمام الثانية عشرة بعد منتصف الليل كنت أفتح باب غرفته في هدوء، ثم أدخل يدي أولا، ثم رأسي. ثم أنتظر ساكنا، وفي يدي مصباح صغير مغطى بقماش سميك. كنت أزيح القماش في بطء حتى يتسلل من ضوء المصباح نور خافت لتظهر لي تلك العينين. في كل ليلة كنت أجدهما مغمضتين فتنتهي خطتي قبل أن تبدأ. لم أكن أريد قتل الرجل، وإنما كنت أريد عينيه.
عينيه فقط!
كنت أزوره في الصباح، وفي ود أسأله كيف كانت ليلته وكيف نام.

لم يكن يعلم أني كنت أزوره في كل ليلة في تمام الثانية عشرة، فأجده وقد أغمضهما إثر سبات عميق.

في الليلة الثامنة ذهبت إلى غرفته وبداخلي شعور أن خطتي ستنجح. كانت عقارب الساعة تجري كي تسابق يدي التي تفتح بابه في حذر. كنت أشعر بقوة في داخلي وقد صفا ذهني كي تنجح خطتي.

تحرك العجوز فجأة في فراشه. لم أشعر بالخوف، فقد كان الظلام حالكا شديد السواد ولم يكن بإمكانه أن يراني البتة.

فتحت بابه أكثر، فتحته بنعومة وحذر. أدخلت رأسي، ثم يدي، وقد أمسكت بالمصباح وفوقه القماش السميك. انتفض العجوز فجأة وانتصب جالسا على سريره وهو يصرخ:

- من؟ من هناك؟

تسمرت في مكاني ولم أنطق. أرهفت سمعي فلم أجد إلا الصمت المطبق. كان العجوز جالسا على طرف سريره وهو يرهف سمعه بدوره. صدرت منه صرخة خافتة كهمهمة بدت خائفة. لم يكن يراني، ولا يسمعني، ولكن يبدو أنه كان موقنا بوجودي. أزحت القماش من فوق المصباح في بطء وثبات، حتى تسرب الضوء في

الغرفة كشعاع هارب ليستقر عليهما. عيناه! تلك العينان الشريرتان!

كانتا مفتوحتين، واسعتين، تشعان شرا مستطيرا، وخوفا خانقا. شعرت بالغضب يكاد يفتك بي وهما ينظران إلي. لم أر وجهه. عيناه فقط، بلونهما الأزرق الداكن الشرير الذي يجمد الدم في عروقي. أكاد أسمع الآن صوت قلبه كمطرقة تدق على الحوائط حولي، أو كبندول ساعة يكاد يصيبني بالصمم. حاولت أن أثبت. كانت دقات قلبه تتعالى، وعيناه تشعان شرا داكنا وهما ينظران إلي في ذعر. كان صوت قلبه المذعور يعلو في أذني، بينما كان غضبي في نفسي كبركان يشرف على الفوران. كان غضبي مؤلما! حتى أنه تحول من غضب إلى خوف مقيت. كادت دقات قلبه تهز الجدران. لم أتحمل، اندفعت نحوه صارخا:

- مُت. مت!

صدرت منه صرخة فزع وأنا أطبق على أنفاسه في قوة. لايزال قلبه يهز الحوائط. لاحت مني ابتسامة وقد أيقنت بأن خطتي ستنجح. اهتزت الجدران لدقائق، ثم سكنت. وتوقف الصوت أخيرا. وسكنت جوارحه.

لن يقوم بإزعاجي مجددا. لن تزعجني عيناه. صار ميتا فوق سريره كحجر.

هل ما زلت تظن أني مجنون؟

حسنا. استكملت خطتي الناجحة في ترو. قطعت رأسه، وفصلت ذراعيه وساقيه. كنت دقيقا حتى لا ينسكب مني دم على الأرض. ثم نزعت ثلاثة قوائم من الأرضية الخشبية، لأضع فيها قطعه بإحكام، ثم وضعت القوائم مكانها تماما. لن يلحظها أي أحد.

لما انتهيت سمعت صوتا على باب المنزل. كانت حوالي الرابعة فجرا، ولكن الظلام كان لايزال حالكا. هبط الدرج في هدوء وثبات وقد سكن غضبي وهدأ خوفي. فتحت الباب لأجد ثلاثة من الشرطة. قالوا إن أحد الجيران قد سمع صوت صراخ يصدر من منزل العجوز، فحضروا كي يفتشوا المكان. في ثبات طلبت أن يدخلوا. قلت إن تلك الصرخة قد صدرت مني وأنا نائم. وأن العجوز قد ذهب ليزور صديقا له في البلدة. طلبت منهم أن يجولوا في أركان المنزل، وطلبت أن يفتشوا جيدا. جيدا جدا! أخذتهم بنفسي نحو غرفته، بل وطلبت منهم أن نكمل حوارنا هناك. كان تحديا كبيرا، وانتصارا ساحقا لذكائي الباهر.

كانوا يصدقونني. كنت هادئا ومتزنا وثابتا. وكانوا يسألونني في ود، وكنت أجيبهم في لطف. ولكن وبينما نحن في حوارنا إذا بي أشعر بصداع عجيب. عاد ذلك الصوت من جديد. صوت المطرقة العالي الذي يهز الجدران، والذي يشبه البندول. تكلمت معهم محاولا أن أتناسى ذلك الصوت. ولكنه بدأ يعلو. تكلمت أكثر، ولكنه علا أكثر وأكثر!

بدا الصوت شديدا وواضحا، واهتزت الحوائط من حولي من أثر ذلك الصدى المقيت.

صرت أتكلم بصوت عال، وأتكلم في سرعة. هلا انتهيتم؟ لماذا تسألوني مجددا؟؟ يكفي هذا. صرت أسير في الغرفة في عصبية وذلك الصوت يعلو. وصوتي يعلو، وكلماتي تتسارع، ووجدت شبح ابتسامة عجيبة فوق شفاههم. هل تراهم لا يسمعون ذلك الصوت مثلي؟

هراء! لا بد أنهم يسمعونه وإن أنكروه. إنه واضح كالشمس، وهادر كالرعد. بدأت أشعر أنهم يتلاعبون بي. إنهم يسمعون، ويعرفون. كان الصوت يعلو، ويعلو.

صرخت فجأة وأنا أشير نحو قوائم الأرضية:

- نعم! لم أعد أحتمل! إنه هناك. أنا قتلته. انزعوا القوائم وسترونه. صدقوني.

ظلت الجدران تهتز، لم يتوقف الصوت، بل ظل يعلو ويعلو.

دون حرب أهلية

مترجمة

- قصة للكاتب النيجيري/ تشينوا أشيبي (١٩٣٠- ٢٠١٣). تحكي القصة عن فترة الحرب الأهلية في نيجيريا، والتي اندلعت ما بين ١٩٦٧ وعام ١٩٧٠، حيث انهزمت فيها قوات المتمردين المنتمين إلى جماعة (الإجبو) والتي أرادت الانفصال عن الحكومة النيجيرية آنذاك. ينتمي الكاتب عرقيا إلى تلك القومية المتمردة، كما أن جل كتاباته تتمحور حول الحرب، والدين، والامبريالية البريطانية في أفريقيا.

يعتبر جوناثان أجوبو نفسه محظوظا جدا، إذ شاءت الأقدار أن يحافظ على حياته في هذا العالم. كما استطاع أن يظفر بحياة زوجته ماريا، وأولاد ثلاثة من أصل أربعة، وأن يستعيد دراجته القديمة، والتي صادروها إبان ذروة الحرب. لايزال يذكر عندما وقف أمام ضابط هزيل ذي نجمتين مخيطتين على قميص رث، والذي نفرت من فوهة حذائه المثقوب أصابع قدميه الداميتين، وقد استل هو من حقيبته جنيهين، كانت ماريا قد ادخرتهما لشراء مدفأة، فابتاع وجبة سمك وذرة، ليهبها للضابط الذي بدا عليه الحبور والرضا، وهو يعيد إلى جوناثان دراجته. في تلك الليلة ذهب جوناثان إلى الأدغال، ونبش في التراب عند قبر ابنه الصغير، ثم دفنها بجانبه في سلام. بعد عام من أفول الحرب رجع ونبشها من

جديد. وجدها كما هي. ابتسم وهو يشحمها بزيت النخيل ويتمتم «لا شيء يعجز الله!»

صار يستخدمها كوسيلة نقل لجنود البافاريا وعائلاتهم، حيث ينقلهم عبر الطريق الممتد لأربعة أميال حتى يستطيعوا الوصول إلى أقرب طريق ممهد. كانت الرحلة تكلف الرجل البافاري ستة جنيهات. في غضون أسبوعين، كان جوناثان يمتلك مائة وخمسين جنيها بافاريا.

لما عاد جوناثان إلى منزله في مدينة إينوجو لم يصدق عينيه. فركهما وهو يحدق مذهولا. كانت معجزة جديدة! كان بيته الطيني الهزيل لايزال قابعا في مكانه، وقد تعرى من شبابيكه وأبوابه الهزيلة، بينما ذلك البيت الخرساني الكبير، والذي لا يبعد سوى أمتار قليلة، قد استحال إلى كومة من الأنقاض!

التقط قطعا من الحديد والخشب وألواح الكرتون التي تناثرت في الأرجاء. ساعده أحد النجارين المعدمين يحمل مطرقة قديمة وبضعة من المسامير الصدئة، ليحيل تلك الأخشاب والكرتون إلى شبابيك وأبواب مقابل خمسين جنيها بافاريا. استطاعت العائلة

أخيرا أن تعود إلى بيتها القديم، محتفظين برؤوسهم فوق أكتافهم، وفي قلوبهم نشوة وبعض أمل.

شرعت العائلة في استكمال حياتها الجديدة: الأطفال يقطفون ثمرات المانجو ويبيعونها لجنود الجيش حولهم، والأم تصنع الفطور للجيران. أما جوناثان فكان يستخدم دراجته للذهاب إلى القرى المحيطة، حيث يشتري نبيذا من نوع جيد، ثم يخلطه بالماء الذي صار يجري مجددا من خلال الصنابير بعد انقضاء الحرب. افتتح حانة في الأخير كي يبيع فيها نبيذه الرخيص للجنود المنتصرين، وبعض سكان المنطقة الذين لازالوا يملكون بعض المال. لم ينس وجوه أولئك البؤساء الذين زاملوه في منجم الفحم. من حين لآخر كان يذهب إلى هناك، يعملون طيلة النهار، ثم يذهبون آخر اليوم دون مأوى. يعيشون في العراء، ويفترشون السماء، ويأكلون ما قد يحصلون عليه من طعام في تلك العلب المعدنية الصغيرة. كم أنت محظوظ يا جوناثان!

مرت الأيام حتى كاد جوناثان أن ينسى. شحت زيارته إلى المنجم حتى أصبحت مرة كل أسبوع، فأسبوعين، ثم انعدمت وقد انشغل بحانته الصغيرة.

ثم حالفه الحظ مجددا. استطاع جوناثان أن يبدل عشرين جنيها حكوميا بما لديه من جنيهات بافارية قديمة. كانوا يطلقون عليها «منحة الحكومة الجديدة»، يقف الجميع في طوابير طويلة منتظرين تلك الهبة الكريمة.

كانت ثروة عند جوناثان لا يستهان بها. كمشها في جيب بنطلونه في حرص. لايزال يذكر ذلك الرجل المسكين الذي انتابه الجنون والبكاء أمام الناس بعد أن سرقه أحدهم في الطابور. ولم يشفع له بكاؤه ولا جنونه حين لامه بعضهم على إهماله. أخرج الرجل جيبه فوجدوه مثقوبا بحجم يسمح بمرور لص! أصر الرجل أنه لم يضعها في ذلك الجيب، وإنما في الجيب الآخر. حين أخرجه اكتشف أنه مثقوب كذلك.

زاد جوناثان من حرصه بعدها. كمش المال في كفه اليسرى، ثم دفن يده داخل جيبه الأيسر. أبقى كفه اليمين طليقا للسلام، ظلت عيناه مفتوحتين في طريقه نحو منزله الصغير وقد حدق في السماء كي لا ينظر إلى الوجوه الجائعة.

حاول جوناثان تلك الليلة أن ينام. ظلت أذناه يقظتين وقد انسدل سواد الليل حتى كاد يسمع أنفاس الجيران. حاول حتى دهمه النعاس أخيرا.

- ما هذا

تنبه بغتة على صوت قرع قوي على باب بيته، وصوت زوجته تسأل في فزع. قال في خفوت حذر:

- لست أدري.

عاد القرع بقوة مجددا حتى كاد الباب الهزيل أن ينخلع. قال بصوت متهدج:

- من هناك؟

جاءه صوت بارد كالصقيع:

- نحن الشياطين. افتح الباب.

انهال القرع على الباب كوابل مطر.

صرخت ماريا في فزع مجنون:

- لصوص! النجدة. الشرطة. سنموت. سيقتلوننا.

ساد بعض الصمت حتى ظن جوناثان أنهم قد ابتعدوا، ثم عاد ذلك الصوت يقطع سكون الليل:

- هل انتهيتِ يا امرأة؟ نستطيع نحن أن نساعدك.

انطلقت أصوات عدة زاعقة تصرخ في سخرية:

- شرطة!. لصوص! أيها الجيران أنجدونا.

بدا وكأنهم خمسة رجال يتحلقون حول منزل جوناثان.

كاد الرعب أن يفتك بقلوب العائلة. انتحبت ماريا وأطفالها بصوت مرتعش مكتوم. ساد صمت كأنه من عمق الجحيم، وقد خالطه أنفاس جوناثان المتلاحقة. توسل جوناثان في الأخير إلى الرجل كي يتكلم. قال الرجل:

- صديقي. يبدو أن الشرطة نائمة. لماذا لا تنادي على الجيش؟ ها؟ أليس الجيش أفضل؟ هل أناديهم نيابة عنك؟

انطلقت الصرخات المستهزئة من حناجر الرجال. ليسوا خمسة. ربما عشرات!

اصطكت أسنان جوناثان من الخوف. ارتعشت ركبتاه وقد جف حلقه تماما. قال بصوت متحشرج:

- لا داع.

- حسنا. إذا كنت قد فهمت الأمر إذن فدعنا نتكلم بموضوعية. بزنس. ما رأيك؟ نحن لا نحب المشاكل. أوه أنت تعلم المشاكل لا تنتهي. ولكننا لسنا لصوصا سيئين. كما أن الحرب قد انتهت. أو لم تنته يا رفاق؟

صدرت همهمات صاخبة حوله.

قال جوناثان متوسلا:

- أنا فقير جدا. كل ما أملكه ذهب مع الحرب. تعرفون أولئك الذين يملكون المال. اذهبوا إليهم.

- حسنا إذن. نعرف أنك تملك القليل، ولكنا لا نملك حتى الفتات. لذلك أنصحك أن تفتح هذه الخرقة التي على شكل شباك، وأن تدفع لنا بمائة جنيه صافية. وقتها سنذهب، أو إن لم تدفع سنضطر أن ندخل بيتك الجميل، وأن نقوم بعزف مقطوعة صغيرة.

قالها وقد انطلق صوت الرصاص من كل صوب حول المنزل.

انتحبت ماريا وأطفالها بصوت مسموع.

- أوه يا عزيزتي لا داعي للبكاء. نحن جيدون. فقط ناولينا مائة

جنيه وسوف نذهب.

قال جوناثان وقد اعتصر قلبه ألما:

- لست أملك مائة جنيه. صدقني.

- صدقني أنت يا رجل. لو دخلنا منزلك لن نكون جيدين أبدا. لو أردت سنبحث نحن نيابة عنك.

بدأ جوناثان ينتحب. قال في توسل:

- صديقي. أقسم أني لا أملك مائة جنيه. لو أنك دخلت منزلي ووجدت مائة فاقتلني في الحال. كل ما أملكه عشرون جنيها أخذتهم اليوم هبة من الحكومة.

- امممم. حسنا. افتح الشباك وناولني العشرين.

زمجر الجمع خارجا في غضب، وقال أحدهم «كاذب» «دعنا ندخل»

صرخ الرجل آمرا:

- اخرسوا جميعا.

توقفت همهماتهم بغتة. صرخ في جوناثان:

- هيا أسرع وناولني العشرين.

تحسس جوناثان طريقه عبر الظلام، وقال في خوف يشوبه امتنان:

- حالا حالا.

مع أول شعاع للضوء، تجمع الجيران حول منزله مواسين، تجمعوا وفي نظراتهم شيء من خجل.

كان جوناثان يقوم بملء قواريره ويضعها خلف دراجته كي يذهب إلى الحانة، وزوجته تتعرق أمام لهب النار وهي تصنع فطور الصباح للجيران، بينما كان ابنه الكبير يقوم بتنظيف زجاجات النبيذ القديمة.

- لا يهم.

قالها جوناثان وهو يضع القوارير خلف الدراجة، وحوله العيون تواسيه.

- كانت مجرد منحة. هبة من الحكومة. هل فعلت لأجلها الكثير؟ هل تساوي ما فقدته في الحرب؟ فلتذهب الهبة إلى الجحيم إذن!

نظر إلى عيون الجيران حوله، وأردف:

- لا شيء يعجز الله!

الفهرس